

الباب السادس

﴿حكم التاريخ﴾

أما المأمون فخلط فسلط الناس على نفسه.

وأما أبي المعتصم فإنه رجل حرب ولم يكن له بصر

بالكلام. وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه.

ال خليفة المتوكل

أساء المأمون إلى دولته وأسرتة يوم آثر الفرس على العرب، وأساء إلى دولته وسيرته يوم تصدى لقهر أهل السنة، وخرع على المبادئ التي طالما نادى بها من حرية الفكر. وأثار. الخصام بين الدولة والرعية وأتبعه خلفاؤه فأثروا الترك على الفرس وازدادوا بعدًا من العرب واستهتارًا بالمبدئين اللذين صيرا الدعوة العباسية دولة عالمية. وهما العمل الصادق بالدين وإعادة التوازن بين عناصر الأمة بالتمكين للوحدة من خلال التعدد والتنوع. بل قلبوا الأشياء فصيروا العرب في دولتهم غرباء. وفشا اللهو وشاع الجهل وانقطاع الصلة بين الخلفاء والرعية. فمشى بنو العباس إلى مصايرهم معصوبي العيون كالمسحرين.

ولما ثاب المتوكل إلى الجماعة كان رجوعه بعد الأوان، بزمان، يعدل حياة جيل كامل، أحدث فيه الانحراف المزدوج آثاره. فتهدمت الجسور للعودة إلى العرب وإن لاذ الخليفة بالسنة وإمامها.. فدعاه إلى القصر فلبى قيامًا بواجب الطاعة لولي الأمر. فهذا درس يعلمه للمسلمين. لكنه أبى أن يلتحق بالحاشية فنجا من النعيم المقيم في جوار الخليفة، كمثل ما ثبت في محنة العذاب البئيس من سابقه، ورجع إلى بيته يراجع المسند ويعكف على تعليمه حتى إذا دخلت السنة الثامنة والسبعون من عمره لم يكتب له أن تطول أيامه.

ومصير الدولة إلى أجلها المقضي، والمتوكل إلى أحمد، وصعود روح أحمد إلى الرفيق، الأعلى فصلان في الباب الأخير.

الفصل الأول

حكم التاريخ

"لو شهدت الخضر التي أنتجها في "سالونا"

لما تحدثت إلي عن الإمبراطورية"

الإمبراطور دقلديانوس

- الحكم في موقف الإمام
- الحكم في مواقف المأمون والمعتصم والواثق
- الحكم في الامتحان
- الحكم في المتوكل

الأحكام في قضايا التاريخ الكبرى يصدرها التاريخ وينفذها من خلال أجياله، وهو يقوم العوج ليرجع الأمور إلى الجادة، ويعلو بالألم ويهبط ليعيد الموازين إلى الاعتدال. وصفحات التاريخ تتكرر أو تتغير لأن غايته هي العدالة. وطريقها الاستقامة – وبهما يربط الخالق سبحانه وتعالى أكوانه، ويصل صلاح الدنيا بعدل السماء.

وقوانين الطبيعة تقول: "كل فعل رد فعل مضاد له في الاتجاه ومساوٍ له في المقدار".
وقديماً قال الشاعر العربي:

* والهر بالإنسان دواى *

وفي القرن الماضي يقول فيكتور هيجو: "ربما تعرف الأشياء ما تصنع لكن الرجال – ببقين – لا يعرفون ما يصنعون" وفي هذا القرن يقول جاك بانفيل: "عندما ينظر إلى التاريخ في مجموعه تظهر الدقة الصارمة التي تتابع عليها الحوادث وتنتائج".

والتاريخ قد يبطئ الخطو لكنه لا يتوقف. كالعدالة قد تكون عرجاء لكنها تصل.. قد تستغرق الخطوة الواحدة قرناً أو أكثر، لكنها أمر مقضي. وكثيراً ما تنبت الحبة الواحدة مائة حبة، في جيلها أو في غيره. أو تدفع أجيال أنثمان الخطايا التي تفارقها أجيال سواها، فيأكل الآباء الحصرم (أول العنب) والأبناء يضرسون، ويتحكم الموتى في الأحياء من بعدهم.

والتاريخ يعلن قانونه بكل اللغات، في كل الحضارات، من اليونانية إلى الرومانية إلى العربية إلى الإمبراطوريات الحديثة – وكثيراً ما تتلاحق ردود الأفعال في تتابع وتوافق بشدهان الأذهان. كأن الكرة ترتد للاعب. أو العملة الواحدة تدير وجهها الآخر! فإذا تراخى الزمان لم يتخلف التوافق أو التطابق.

ولقد يضع التاريخ المرايا في موقع العبرة وكأنها عيون باصرة أو شفاه ساخرة، ليظهر الناس على ما يصنعونه، أو ما يصنع بهم، مع سخرية الأقدار منهم. كهيئة الألمان يوم تراءى الجمعان من صناعات التاريخ المعاصر في سنة ١٨٧١ لإعلان قيام الإمبراطورية الألمانية في بهو (المرايا) بقصر فرساي، على مشارف العاصمة الفرنسية المنهزمة. ويوم تراءى أمامها الألمان بعد نصف قرن في سنة ١٩١٩، مع مندوبين عن سبع عشرة دولة يوقعون إعلان انهيار هذه الإمبراطورية الألمانية.

ومن قبل ذلك يقرون ثلاثة لم تكن إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا تتصور - إذ يقصف جلادها رأس ماري ستيوارت ملكة اسكتلندا سنة ١٥٨٧ - أن الذي سيجلس بعد إليزابيث مباشرة على عرش إنجلترا بعد نحو نصف قرن من حكمها (١٥٥٨ - ١٦٠٣) هو جيمس الأول ابن ماري ستيوارت نفسها... قادمًا من اسكتلندا.

وفي ١٨٠٥ تلاقى في (معركة البراطرة) كل جيوش أوربة - وقد أجمل وصفها شوقي في قصيدته مخاطبًا نابليون:

يوم أو سترلنتز كان الملتقى واجتماع النسر بالمستسرين
صدت شاه الروس والنمسا معًا من رأي شاهين صيدًا في كمين

لكن التاريخ لم يمهل صائد الشاهين إلا عشر سنين، فأنهى معاركه الستين في ووترلو سنة ١٨١٥، ليسير النسر الذي صاد المستسرين على قدميه إلى القفص في البارحة (بلرفون) رجاء النجاة من أيدي هذين الإمبراطورين، ثم ينتقل من القفص الصغير إلى القفص الكبير في سنت هيلين.

* * *

والذي شهدته العواصم الإسلامية قبل ذلك بألف عام لم يكن فيه عجب. فما هو إلا العملة الرائجة، أو اللغة الدارجة، بين الحقب:

المأمون يشهر السيف ليقتل أحمد بن حنبل فإذا المأمون يقتله الله وهو ينتظره. وإذا أحمد يحيا. بل يتعاقب عليه خليفتان معتديان (المعتصم والواثق) فيموتان، والأول أقوى أهل الأرض بدنًا، والثاني أنضرهم شبابًا ليقضي خلفاؤهم أربعة قرون بعدهم يحملون أوزارهم على كواهل واهنة.

أما ذرية المأمون الذي وصى المعتصم بامتحان أحمد وهو يوصي له بالخلافة، فنلقى انتقام التاريخ على يد المعتصم نفسه، إذ يأمر المعتصم أترابه بقتل العباس بن المأمون لينقطع دابر ذرية المأمون من سجل الحوادث.

وأما ذرية المعتصم، الذي عذب ابن حنبل فتبقى، لنلقى من انتقام التاريخ ما لم يعرف له نظائر التتابع أو التشابه أو فظاعة النكال، مع براعة الاستهلال! إذ يسهل النكال بأن يقتل الأتراك الذين جاء بهم المعتصم، المتوكل بن المعتصم! ويقتلونه بمؤامرة عليه مع ابنه!

وأما الواثق فيدفع ثمن خطاياہ بمقتل ابنه المهتدي ابلله وهو خليفة على يد الأتراك كذلك. ثم تتابع المصارع على سنة القتل الذريع والموت من الجوع، وسمل العيون، وائتمار الأهل بالأهل والإفحاش في الرذائل. ذرية بعضها من بعض. لكنها كلها ذرية المعتصم! وما هي إلا غضبات السماء ولعنات الاستهتار تورث الأثرة والانطواء والاستخفاف بالمفاسد والهروب من التبعة.

وأما ابن أبي داؤد فستشهده بغداد: مسجوناً في جلده - أشل - والخليفة يطلب رأي أحمد بن حنبل في مصيره... وأحمد يعفو ويصفح.

وستشهد بغداد (باغر) التركي الذي قتل المتوكل، تملأ له السماء، حتى إذا أخذته لم تقتله، فيقتله الجند أنفسهم.

بل تشهد خوائن الخلفاء رأس وزير قطعت، ومعها يد الوزير التي كتبت أمر القطع، محفوظين في سبط واحد! وعلى السبط تذكرة للناس يقول كاتبها: "إن هذه اليد هي التي قطعت هذه الرأس" (١٥٨).

(١٥٨) وفي معرض العبر التي يعتبر بها بنو أمية - هم الآخرون رعوس أخرى:

يقول عبد الملك بن عمير الليثي (رأيت في قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بن علي بين يدي عبيد الله بن زياد علي ترس. ثم رأيت فيه رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار بن عبيد. ثم رأيت رأس المختار بن عبيد بن عبيد بن عبيد بن الزبير. ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير بين يدي عبد الملك بن مروان. فحدثت بذلك عبد الملك بن مروان فتطير منه. وفارق مكانه).

وإنما عجلت السماء الجزاء على مقتل الحسين سيد الشهداء سنة ٦١ فنقل عبيد الله الذي أمر بالمقتل. بل قتل قائد الجيش الذي قام بالمقتل. ثم قتل المختار بن عبيد لعدم إخلاصه. ولما تطير عبد الملك كان يتصور

وستشهد فسطاط مصر القاضي ابن أبي الليث الذي أهان المحدثين في محنة خلق القرآن، وقد عاد إلى مصر قاض من المحدثين الذين أرسلهم إلى الحبس في بغداد - الحارث ابن مسكين - فيأمر بجلده كل يوم عشرين سوطاً حتى يسدد ديونه، وقد أمر الخليفة أن يطاف به في الأسواق ويضرب وتحلق لحيته.

وستشهد مصر - القاهرة - ابن مخلوف الذي قضى بحبس ابن تيمية، يطلب فيه رأي ابن تيمية فيعفو ويصفح.

مصرع مصعب على يد جنده. ويتذكر لغة التاريخ الذي جاء بهذه الرؤوس من ميادين القتال المتنازحة إلى هذه الساحة الصغيرة في هذه الفترة القصيرة - نحو عشر سنين - لعل الناس يتفكرون! إذ تبصرها أعينهم! أما الواقعة التي كان يجدر أن يتوقعها عبد الملك فتجيء بعد نصف قرن في سنة ١٣٢ عند تسيل في وليمة واحدة دماء سبعين من حفدته وذويه فلا يبقى بنو العباس على ظهر الأرض أمويًا إلا من هرب (ليصبح الملك ثابت الأساس للبهاليل من بني العباس) كما يقول شاعر المذبحة: ومن الضحايا حفيدة سليمان بن هشام بن عبد الملك. فاجأه القدر إلى جوار السفاح عندما دخل سديف الشاعر فرآه فأثشد السفاح:

لا يغرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دوبا

فسقطت رأس سليمان بين رعوس الكثيرين من الأمويين.

الحكم في موقف الإمام:

كان إمام المسلمين في موقفه يغلق أبواب الشر والخطر، ويجنب الأمة أن تتصدع في عقيدتها.. والإمامة رؤية واضحة لطريق العقيدة ومسيرة التاريخ. وبالرؤية الصادقة حمى الإمام أهل الإسلام من التردي في هاوية الشقاق حول آراء الرجال كما كتب على أمم أخرى في الماضي البعيد والقريب. وكما سيقع بعد قرون إذ تنقسم الكنائس^(١٥٩) وتنشب الحروب وتسيل

(١٥٩) تقول الكنيسة الأرثوذكسية المصرية: (إن الله ذات مثلثة الأقانيم الأب والابن والروح القدس - تجسد الابن من الروح القدس من مريم العذراء وصار هذا الجسد وحده ذاتية جوهريّة وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين. وفي القرن الرابع انتشرت آراء أريوس وكان قسًا واسع الإطلاع من مدرسة اللاهوت في أنطاكية (أن أقنوم الابن غير مساو لإقنوم الأب في أزليته وأن يسوع الابن الأزلي مخلوق) فجرده بطريرك الإسكندرية فانتقل إلى فلسطين ثم أعيدت إليه رتبته ثم جرد من جديد.. وعقد مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ بحضور الإمبراطور قسطنطين فشجب المؤتمر آراء أريوس وأعلن ماربطرس في المجمع العقيدة الملكية (الله واحد من جوهر أبيه.. وولد من مريم البتول وصلب.. ودفن ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء. ونؤمن بروح القدس الواحد وروح الحق الذي يخرج من أبيه.. وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية).

وظلت آراء أريوس تنتشر وقاومها البابا أثناسيوس (٣٧٣) بطريرك الإسكندرية وطلب الإمبراطور تبرئة أريوس فاعترض الباب فنفاه الإمبراطور إلى تريف بفرنسا وأعاد أريوس إلى القسطنطينية.

وفي القرن الخامس ظهر نسطور (يقول إن للمسيح أقنومين. أحدهما إنساني والثاني إلهي وإن السيدة العذراء ليست والدة الإله بل والدة المسيح) وهذا يناقض قول الكنيسة الأرثوذكسية (إن للمسيح أقنومًا واحدًا اتحد بالطبيعة الإنسانية وإن السيدة العذراء تدعى بحق والدة الإله) وانتصر أسقف أنطاكية لنسطور وجردهم بابا الإسكندرية كيرلس الرابع (٤٤٤). كما عارضت نسطور بطاركة روما وتابع كثير من المشاركة المسيحيين آراء نسطور. وهؤلاء هم النساطرة.

وفي القرن ذاته ظهر أفتيخوس. يقول: باختلاط طبيعة اللاهوت وطبيعة الناسوت في المسيح وامتزاجهما وصيرورتهما طبيعة واحدة (بمعنى أن طبيعة الناسوت تلاشت في طبيعة اللاهوت) وعقد مجمع أفسس (٤٤٩) فحرم بدعة أفتيخوس وعزل المؤتمر بطريرك القسطنطينية لكونه نسطوريًا وأمر الإمبراطور مارشيا نوس وزوجته بلخاريا بعقد مجمع خليفونية سنة ٤٥١ وتدخل فيه الإمبراطور فحبس بابا الإسكندرية دسقورس. وفي مجمع خليفونية ظهر الانشقاق بين الكنيسة في القسطنطينية وكنيسة الإسكندرية. وتتابعتم المجمع مسكونية (عالمية) أو مكانية. وأمسى ملوك القسطنطينية يؤيدون عقيدة القسطنطينية فسميت الملكية أو الملكانية وهي عقيدة التثليث (أب وابن وروح قدس - كلها قيمة) وأصبح في العالم كنائس أرثوذكسية في الإسكندرية رأبها هو الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة وأرثوذكسية بالقسطنطينية رأبها أن للأقنوم الثاني (الابن) طبيعتين ومشيتين. وتابعتها في ذلك الكنيسة الكاثوليكية إذ انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى

دماء الملايين من جراء الخلافات بين أبناء الدين الواحد حول تعاليم الكنائس، أي آراء الرجال، لا حول تعاليم المسيح! فالمسيحية واحدة في الكتاب المقدس، وإنما الخلافات حول آراء الكنائس.

ومن الخلافات ما يدفع إلى الكفر.

لقد مال الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية واعتنقها أولاده ثم صارت دينًا للرومان واختلفت الكنائس حول طبيعة المسيح بين قائل إن الأب والابن من طبيعة واحدة - جوهر واحد - وقائل إنهما طبيعتان متشابهتان وتتابعتا المجامع من عهد قسطنطين (٣٣٧) إلى عهد قسطنطينوس (٣٦١) ومن مجمع نيقية (٣٢٥) إلى جميع نيقية (٣٢٥) إلى مجمع ساريكا (٣٤٧) إلى مجمع ميلانو سنة (٣٥٥) وتأرجحت مواقف القسيسين، بين الميل إلى المذهب والميل عنه، وفق ميل الإمبراطور إلى مذهب والميل عنه. فجعلت هذه الذبذبة جوليان بن قسطنطين يكفر بالمسيحية كلها - وهو أمير - ويفرض الوثنية على الدولة - وهو إمبراطور - بل يكتب بيده كتابًا ضد المسيحية يعلن فيه في ضراوة وعمى "لو صيرت كل واحد من أفراد الرعية أغنى من "ميداس" - الملك الأسطوري الذي يحيل كل ما يلمسه إلى ذهب - وجعلت كل مدينة من مملكتي أكبر من بابل، لما حسبت نفسي قد صنعت شيئًا إلا إذا أرجعتهم إلى عبادة الأوثان".

ومن الخلافات ما يقسم القارات:

لقد انقسمت الكنيسة الأرثوذكسية في مصر - وكنيسة القسطنطينية في أوروبا لاختلاف الملكانيين واليعاقبة قبل قرون من عصر أحمد بن حنبل.

وفي القرن الثامن للميلاد والثاني للهجرة - وهو القرن الذي ولد فيه أحمد وجميع الذين كانوا يروجون لنظرية خلق القرآن - انعقد مؤتمر بيزنطة (٧٥٤م - ١٢٤هـ) يحرم عبادة

إمبراطورية رومانية شرقية عاصمتها القسطنطينية وأخرى غربية عاصمتها رافنا في عهد الإمبراطورين أركاديوس وهونوريوس وما تزال الكنيسة تريد التوحيد منذ تلك العصور.

وكان قساوسة العالم يحملان أعلام هذا الخلاف - والمؤتمرات المكانية أو المسكونية (العالمية) لا تتوقف وفيها المئات من قساوسة العالم، تتابع على مر الدهور. من مجتمع نيقية سنة ٣٢٥ إلى مجمع القسطنطينية إلى مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ إلى مجمع أفسس الثاني ٤٤٩ إلى مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ إلى مجمع القسطنطينية سنة ٥٥٣ إلى مجمع القسطنطينية سنة ٦٨٠ إلى مجمع القسطنطينية ونيقية سنة ٧٨٦ - ٧٨٧. كل ذلك قبل أن يولد أحمد بن حنبل. أما الخلافات بعد ممات أحمد فستحدث الحروب العالمية.

الأيقونات (التمثيل والصور) وانعقد مؤتمر نيقية (٧٨٧ - ١٥٧ هـ) لبيح تقديسها! فكانت حرب الأيقونات إرهاباً بالانقسامات بين كنيسة شرقية في القسطنطينية وكنيسة غربية في روما بتأييد شارلمان.. ولسوف ينقسم المنقسمون.

ومن الخلافات ما يدمر الإمبراطوريات:

لقد انتهى الخلاف بين رجال الكنيسة وبين الحكام في القرون الوسطى على أن ينفذ رجال الدين آية المسيحية فيتركوا "ما لقيصر لقيصر" في مقابل أن يترك لهم ملوك الأرض مملكة السماء.. ليبيعها البابوات، بعد، في شكل صكوك أرضية للمغفرة السماوية! فتكون فضيحة ينقسم رجال الدين حولها.

ثم بدأ الرجال ينقسمون حول البابوات أنفسهم. وهؤلاء يقولون إنهم فيما يصنعون يعبرون عن آراء المسيح. وإن الكنيسة تمثله.. ولا تمضي القرون حتى تتقاسم الكنائس المنشقة ضمائر الناس في القرن السادس عشر من ميلاد المسيح، بين كاثوليك وبين بروتستانت إنجليكان وآخرين غيرهم ينفصلون كلهم عن البابوية.

ولما احتج لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) على البابا وحوكم في مؤتمر "ورمز" ليقبل آراء البابا، وجد النظام البروتستانتي (المحتجين) الذين مهد لقيام الدولة الألمانية وانقسام أوروبا.

وبظهور زونجلي (١٤٨٤ - ١٥٣١) في سويسره وكالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) في سويسرة وفرنسا تبادل الأتباع تهم الهرطقة. وبلغت فظاعة الكنيسة في إنجلترا آخر المدى. لكن قسوة الكنيسة الفرنسية فاقت إنجلترا.

لقد أقر البابا إنشاء غرفة في برلمان باريس لمحاكمة الملحدين... وهم البروتستانت الفرنسيين (الهيجونوت)! فكانت تسمى غرفة الحريق لكثرة ما حرق من الفرنسيين.

وكانت مذبحه فاسي للهيجونوت التي دبرها الدوق جيز نذيرا بمذبحه سانت برتلمي (١٥٧٢) بعد عشر سنين. وقد دبرتها الملكة كاترين.

ثم كانت مذابح هؤلاء وأولئك أقل بشاعة من المذابح في أسبانيا! يحرقون ويصلبون ويقطعون أوصال الرجال أحياء.

وهم جميعاً حرب على من عداهم (١٦٠).

يقول المؤرخ الإنجليزي جبون في كتابه (تاريخ اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية) عن تصاعد البطش من جراء هذه الانقسامات "لم تتعادل الشهوة الدموية لجنود الإمبراطورة تيودورا مع أبطال الحرب الصليبية إلا في فظائع البطش والقسوة. ولكن الباب أنوسنت الثالث تجاوز الشدة الدموية لهذه الإمبراطورة. كما أزرى بقسوة قساوستها بطش الذين أسسوا محاكم التفتيش، وكانت نظاماً يفتش لعمل الشر لا لدفعه.. والذين كانوا يحتجون على استبداد روما كانوا يتمسكون بالإنجيل كأساس للعقيدة المبرأة من الغنوص (إدعاء الاتصال المباشر بالسماء)... وجاءت أسماء لوثر وزونجلي وكالفن فرددها الناس شاكرين لأصحابها باعتبارهم منقذين للشعوب".

ثم يبلغ الإرهاب ذروته حتى ليعجز صانعه عن تصوره! فيهرب منه! فيتنازل شارل الخامس إمبراطور ألمانيا وأسبانيا لابنه، ندمان على ما ارتكبه لإكراه الناس لينزلوا على رأيه، "في حين لا توجد في إمبراطوريتي ساعتان دقاقتان متطابقتان" كما قال وهو معتزل في دير سان بيسنت. وهي حكمة تهبط عليه بعد الأوان، علمتها السماء إمبراطوراً وثنيّاً سابقاً للرومان من ألف ومائتي عام قبله (دقلديانوس)، عندما أصابه الإعياء من الفتك والسفك في روما ومصر حتى دعي عصره عصر الشهداء، فتنازل عن عرشه وأوى إلى مزرعته سنة ٣٠٥. ولما دعاه زميله في العرش للعودة كتب إليه "لو شهدت الخضر التي أنتجها في سالونا لما تحدثت إلي عن الإمبراطورية".

* * *

ومن انقسام الكنائس في القرن السادس عشر بدأت مائة عام من الحرب في أوربة اختتمتها حرب الأعوام الثلاثين (١٦١٨ - ١٦٤٨) بين الأمم الكاثوليكية والأمم البروتستانت. ثم شملت كل أوربة. لتنتهي بصلحي ازنابروك مع البروتستانت ومستمر مع الكاثوليك اللذين تضمنتهما معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ لتكون أساس تكوين أوربة المعاصرة، فتشمل على قسمين

(١٦٠) كان حظ ملايين المسلمين الذين وقعوا في أيديهم بأسبانيا أفظع الحظوظ، من قتل وحرقت وتصوير، إلى تغيير أسماء بعد التصير، وتغيير لغة، إلى محاكم التفتيش التي يسود بها التاريخ وجه أوربة الحديثة، تتخذ تملة لذبح الذين يتصرون حتى بعد أن يتصروا! وفي عمي ١٦٠٩ - ١٦١٠. ثم طرد بقايا العرب فغير البرزخ إلى شمال أفريقيا قرابة مليون عربي مطرودين.

أساسيين أولهما سياسي دولي ينظم شئون الدول الأوروبية القائمة ويقرر استقلال سويسرا وهولندا.. وثانيهما ديني دولي يعلن الحرية الدينية لأصحاب المذاهب المسيحية ويبيح الهجرة للذين لا توافق دولتهم على مذهبهم، ويمنع الأمراء أن يقسروا أحدًا على دينهم ويبيح للبروتستانت ما أخذوه من أموال الكنيسة.. ومن هذا الخلاف الفكري الديني كانت الهجرات الكثيرة إلى أمريكا.

والمهاجرون نواة العالم الجديد.

هكذا بدأت الحضارة الأوروبية المعاصرة نهضتها، ودول القارة الأمريكية وجودها، بالحرية الدينية والفكرية التي لم تبلغها إلا بعد حروب طويلة. وتبعثها الثورات من أجل سائر الحريات. فكان أول إعلان لحقوق الإنسان في الأراضي المنخفضة في ٢٦ يوليو سنة ١٥٨١. ثم تتابعت إعلانات الحقوق في إنجلترا وأمريكا وفرنسا في القرن الثامن عشر ثم في الأمم المتحدة في القرن العشرين.

وفي سنة ١٥٩٨ أصدر ملك فرنسا مرسوم تانت بإعلان الحرية الدينية للفرنسيين (الهيجونوت). فكان يهدي رعاياه قطرات من بحر فجره الإسلام لكل الحريات من ألف عام.

ولو تهاون إمام المسلمين أمام إرادة المأمون، وما هي إلا إرادة في العقيدة كإرادات الأباطرة والباباوات، لانقسم المسلمون انقسام المسيحيين ولتذابحوا كما تذابح الآخرون.

لكن السماء قبضته لحماية المسلمين.

والله بالغ أمره.

الحكم في مواقف المأمون والمعتصم والواثق:

قامت الدولة العباسية على رماح الموالي بدعوى إعادة الحق إلى نصابه في بيت النبي
تتغيا غايتين:

الغاية الأولى: إعادة المساواة بين الموالي والعرب في أمة لا فضل فيها لعربي على
أعجمي إلا بالتقوى. في دولة يقول فيها عمر "لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته". لكن بني
أمية رفعوا أنفسهم درجة على العرب، ورفع العرب أنفسهم على الموالي درجات، وصاروا يسمون
الموالي بالعلوج.

تزوج أعجمي أعرابية من بني سليم فشكاها محتسب إلى إبراهيم بن هشام والي المدينة
وصهر الخليفة عبد الملك ففرق بينهما لعدم الكفاءة بل ضرب الزوج مائتي سوط وحلق لحيته
وحاجبه. فقال الشاكي فيه:

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ولم تثر الحكومة من بعيد

وجرير يقول:

قالوا نبيعه ببيعاً فقلت لهم بيعوا الموالي واستغنوا عن العرب

ويقول المبرد - وهو في عصر بني العباس "وتزعم الرواة أن ما أنفت منه جلة الموالي
هذا البيت لأنه حطهم ووضعهم".

ولم يكف الفرسان والخراسانيون خاصة عن مناوأة بني أمية لهذه النزعة. وقد عبر عن
غضب خراسان وفارس نصر بن سيار والي بني أمية على المشرق في شعر شهير بعث به إلى
الخليفة يقول فيه:

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

ولم تمض بضعة أعوام حتى سير أبو مسلم الخراساني جيوشه لحرب بني أمية وكثرة جنده فلاحون من خراسان.

ولما ولي العباسيون كان مؤسسو الدولة يعرفون للفرس عارفهم، بل يشيرون إلى خراسان على أنها (باب الدولة)، والجاحظ - شيخ المبرد - يقول بعد قرن من قيام دولة بني العباس = (دولتهم أعجمية خراسانية ودولة بني أمية عربية أعرابية).

ولقد بدأ إدبار دولة بني العباس في عصر المأمون إذ فضل العجم الذين أجاءوه إلى الخلافة على العرب الذين حاربوه مع أخيه، وأدى لطاهر ابن الحسين قائد جند خراسان ثمن انتصاره، فقامت الدولة الظاهرية (٢٠٢ - ٢٥٩) بخراسان^(١٦١). وثنى المعتصم فجعل الجيش الدائم من الأتراك فسيطروا على مراكز القوة. ومكنوا للشعوبيين فمال ميزان المعدلة إلى حيث لا عودة.

وتجلى التخليط في دماء الخلفاء فصار كثير من الخلفاء هجناء: المأمون أمه "مراجل" من خراسان. والمعتصم أمه "ماردة" من الترك. والواثق أمه "قراطيس" من الروم. والمتوكل أمه "شجاع" من خوارزم. والمستعين أمه مخارق" رومية. والمعتز أمه "قبيحة". والمقتدر والمستكفي أمهما روميتان. والمطيع أمه صقلية. فكان طبيعياً أن يشبه بيت الخلافة عصابة الأمم!

الغاية الثانية - تطبيق أحكام الدين، ولهذا كان الخلفاء العباسيون خلفاء دينيين يزعمون أنهم يمثلون الله تعالى في الأرض. يقول السفاح (١٣٦) يوم قامت الدولة: "الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمه - واختاره لنا وأيده بنا وخصا برحم رسول الله وقرابته وأنشأنا من آبائه وأنشأنا من شجرته.. جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا".

فلما ولي الخليفة الثاني (أبو جعفر المنصور) قال: "أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوقيقه وتسديده. وأنا خازنه على فيثه أعمل فيه بمشيئته... قد جعلني الله عليه قفلاً" ولما أوصى لابنه المهدي قال له: "إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد والعمل على طاعته في العباد.. فكأنني بك وقد أوثقت بين يدي الجبار... فما عساك أن يكون حالك يوماً وقد خاصمك الخلق...."

وكانت طريقة حياته كمثّل فقهه السياسي: يؤدي الفروض والرواتب. يصلي الفجر ثم يجلس في مصالح الرعية إلى أن يصلي الظهر، ثم يعود إلى أن يصلي العصر، ثم يعود إلى أن يصلي المغرب ثم العشاء، ويجلس مع سماره إلى ثلث الليل الأول فينام الثلث الأوسط ثم ينتبه إلى أن يصلي الفجر ويقرأ في المصحف إلى أن ترتفع الشمس فيجلس للناس.

دخل عليه يوماً شعيب بن شيبه فسأله: عطني وأجز - قال شعيب: "إن الله لم يجعل أحداً من خلقه فوقك فلا ترض لنفسك أن يكون له أشكر في الأرض منك" قال: أحسنت وأجزت.

ولما شكوا أهل البصرة إليه قاضيه سوار بن عبد الله استدعاه. وإنه لفي مجلسه إذ عطس المنصور فلم يشمته فقال له مالك لم تشمتني؟ قال سوار لأنك لم تحمد الله! قال المنصور: أنت لم تحابني في عطسة فلن تحابي غيري.. عد إلى عملك.

ومع أن المهدي كان أروع من الرشيد فالرشيد كان يصلي في اليوم مائة ركعة. وكانت المكاتبات في الدولة تستفتح بسم الله الرحمن الرحيم. فأمر أن يصدر فيها بعد البسملة الصلاة على النبي ﷺ. فحملت وثائق الدولة طابعها الديني كاملاً: الله تعالى ورسوله.. وكان هو وأبأؤه الخلفاء يلبسون بردة النبي في صلاة الجمعة وفي الأعياد الرسمية، ويهزون أعطافهم خيلاء إذ يقال للخليفة منهم: ابن عمك رسول الله ﷺ.

والتاريخ يرفع الرشيد إلى أعلى درجات الحكام العالميين، لا لإمبراطوريته المعدومة القرنين - فهي ميراث توارثه - وإنما أجلته الإنسانية من أجل سجايه وتوفيقه.

يقول سان بيف كبير النقدة في القرن التاسع عشر للميلاد عن لويس الرابع عشر: "لم يكن فيه إلا حسن التقدير لكن حسن تقديره كان عظيمًا" - فبحسن التقدير وحفظ التوازن قاد القارة الأوروبية في عصره فأمنها من الزعازع - وأين (الملك الشمس) من هارون الرشيد: سعة ملك وعظم علم وعمق ورع واتزان نفس وتوازن حكم!

يجلس إلى مالك بن أنس وأبي يوسف والفضيل، ومع ذلك ينشئ دار الحكمة لترجمة الثقافة العالمية، وكلها وثنية.

ويحج عامًا راكبًا أو ماشيًا، ويغزو عامًا في الشمال أو في الشرق.

وبكى خاشعًا للموعظة الحسنة، ومع ذلك لا ينسى نصيبه في الدنيا.

وهو في إدارة الدولة وسيط أبي جعفر: ينحاش إلى الفرس وينحاش عنهم، حسب الحاجة. رجل سلم وأناة وحلم. لكن ساعات حزمه حاسمة.. بمثل ما أزال كالجراح بمبضعه أورام البرامكة... في لحظات.

والسياسة العالمية هي التي تقرأ الكتاب المغلق على الغد وتدير مفاتيح المستقبل.

والمأمون مع سوء سيرته في المحدثين يقول للمعتصم إذ يعهد إليه بالخلافة: "واعمل في الخلافة إذا طوقكما الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه".

هكذا كانت الدولة في قرنهما الأول (١٣٢ - ٢٣٢) تمسك الميزان بين أجناس الإمبراطورية العالمية، وتتبدى فيهم حامية للدين مع ما صاحب خطوات بعض الخلفاء من كبوات. كتفضيل المأمون للفرس وأخيه للترك، أو سقطته وأخيه في صدد خلق القرآن. لكن الخليفين ظلا قادرين على الاحتفاظ بالتوازن بين عناصر الأمة وإعلاء كلمة الدين. والمأمون قائد مسلم قضى نحبه على رأس جيشه في تخوم الروم. والمعتصم بطل عمورية آخرة المعارك العظمى في تاريخ بني العباس من أجل الإسلام.. أما الذين جاءوا بعد هؤلاء فكانوا طرازًا آخر من الرجال... ورثوا المسؤولية عن أخطاء السابقين عليهم - وفيها أخطاء المأمون والمعتصم - ثم ازدادوا بعدًا من القواعد التي قامت عليها دولتهم. وسدروا في الجهل والشهوة، وعاشوا فرعين من أهملهم، وحاشيتهم، وجندهم.

وحياة الأمم في عصر هي حاصل حياة أفرادها.. وحياة الأفراد حاصل ما يفكرونه ويحققونه يومًا بعد يوم. ومن ذلك يتكون روح الأمم.. وما أخطاء الأمم والدول إلا أخطاء الروح التي يحيا بها بنو العصر، وأصحاب الدولة... وبهذا كان لزامًا أن يدمر بنو العباس أنفسهم.

مع ذلك بقيت مظاهر السلطة الدينية لبني العباس يستغلها فيهم من يغتصبون سلطانهم. وأمسى هناك سلطتان، سلطة زمنية في يد السلاطين الغاصبين للدولة، وسلطة دينية في يد الخلفاء المغصوبين، تتمثل في اسم "بني العباس". فلما تفتتت السلطة الزمنية فصارت دولاً، تسابق أصحابها على الظفر بتأييد الخلفاء، أو برضاهم الظاهري، أو صحبتهم أو السيطرة عليهم، أو كسب تأييدهم لإدعاء أساس شرعي لسلطة فعلية.

وعلى هذا وقف أحمد بن طولون بمصر - وقد صارت له بها دولة - إلى جوار المعتمد ضد أخيه الموفق.. وزوج خمارويه بن أحمد بن طولون بنته قطر الندى من الخليفة المعتضد زواج دولة. وسيكرر المشهد بعد قرنين إذ يقصد طغرل بك مؤسس الدولة السلجوقية إلى بغداد ليطلق الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) من محبسه، فيأخذ بلجام بغلته ويمشي أمامه! ثم يزوجه بنت أخيه ويتزوج بنته.

وبعد قرنين آخرين يصطنع بيبرس لأجل دولته خلافة عباسية في جواره بالقاهرة (١٦٢).

* * *

كانت محنة خلق القرآن الثالثة الأثافي... إذ هي هجوم مباشر على المحدثين وأهل السنة في أدق أمور العقيدة، اتخذ شكل محاكم التفتيش التي سبق بها المأمون محاكم التفتيش الذائعة الصيت في عصر التعصب الأوروبي! مع المجازفة بغضب الأمة دفاعاً عما تتعبد ربها به... والإسلام قانونه أن يدعو الناس إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة. فإذا دعوا إليه بالسيف، لم تكن دعوة إسلامية.

وليس في الإسلام سلطة كنسية أو بابوية كالتي زعمها المأمون والمعتصم والوائق لأنفسهم، يوم أصدر هؤلاء، وفي جوارهم النظام وشماعة والجاحظ وابن أبي داود، أوامر إلى أصحاب الحديث وأهل السنة في صدد القرآن والسنة. فكانوا كالبابوات على رأس الكنيسة في صحبتهم أسوأ الأخبار سيرة.

ويوم تخرج الدعوة الدينية - التي أصبحت دولة عباسية - على قانونها تفقد سبب نجاحها كله.. والأشياء لا تبقى إلا أن تبقى الظروف التي أوجدتها.

(١٦٢) لما زالت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ هرب إلى مصر واحد من العباسيين سنة ٦٦٠ هـ فنصبه الظاهر بيبرس (٦٥٦ - ٦٧٦) خليفة شرعياً بلا سلطة. وكان الظاهر يقوم بمعاشه. واستمر خلفاء هذا الخليفة يمثلون السلطة الدينية وربما عاشوا من النذور التي كانت تقدم بمقام السيدة نفيسة في حي الخليفة الآن - فهذا الحي يحمل هذا الاسم بسبب إقامة الخليفة العباسي فيه.

وفي سنة ٨١٥ قامت بمصر دولة عباسية دينية وسياسية لمدة ستة أشهر إذ اختلف المماليك فيما بينهم وقتلوا السلطان عبد العزيز بن برقوق وتراضوا على تعيين الخليفة العباسي سلطاناً ثم خلعه وعادت الخلافة الرمزية لتبقى حتى سنة ٩٢٣ عندما فتح الأتراك مصر فأخذ السلطان التركي الخليفة العباسي معه إلى أسطنبول، وهناك قامت الخلافة العثمانية.

أحمد بن حنبل

كان لعمر بن الخطاب عبد من أهل الكتاب اسمه أسبق، فطلب إليه أن يسلم ليستعين به في بعض مصالح المسلمين وأبى العقد، فأعتقه وقال له اذهب حيث شئت.

كان تردد المأمون في فرض بدعته بضعة عشر عامًا وليد حكمة سياسية، وكان تعجله في فرضها في الأشهر الأخيرة مظهرًا لسورات غضبه أو ضيق ذرعه، يريد ليظهر في الناموس أن له الكلمة الأخيرة في أمور دينهم. فانحرف عن قاعدة دينه. بل انحرف عن قانونه. وهو القائل: "غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القوة". وعن القانون الذي أعلنه من منبر دمشق عمير بن سعيد: "ما يزال الإسلام منيعًا ما اشتد السلطان وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف أو ضرباً بالسوط ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل". أي عن شريعة النبي ﷺ: "ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب".

ولما خالف المأمون منهجه ومنهج السنة في الشكل والموضوع انفصل عن الجماعة وأبعد من أهل السنة فمشى مكبًا على وجهه والدولة معه، في طريق عكسي لطريق الناس، كلما أغذ المسير فيه أبعد من مصلحة الدولة. ولا ترك المعتصم عظام الأمور في يد أحمد بن أبي داود تركها في أيدي غير مسئولة عن مصيرها، فأمسى كالذي تدور به الدنيا ولا يرى دورانها به.

وكانت مأساة المأمون والمعتصم أنهما صنعا بأيديهما عملاً لكن آثار هذا العمل تصنعها أيدي أخرى مع ظروف الزمان والمكان والمجتمع، ولعل أظهر هذه الآثار إحداث أزمة ثقة مزمنة بين الخلفاء والأمة. وتمادى الخلفاء في الاستهتار بغضب العامة. وتتابع الخلفاء والأمة. وتمادى الخلفاء في الاستهتار بغضب العامة. وتتابع الخلفاء بعدهم أسارى في أيدي الترك. وانطواؤهم على أنفسهم، يعيشون من يوم ليوم، ويغرقون آلامهم ومخاوفهم في شهواتهم. وسريان الفساد في قصر الخلافة كالشراب الحرام يعاقره المسئول عن محاربتة. فإذا وجدت نفس صالحة لم تكتب لها حياة. وبيع بعض هذا تنهار الدول.

وإذا كانت سياسة المعتزلة آفة المأمون والجهل آفة المعتصم فالحتل والميل آفة ابن أبي داؤد.

والعدل - كالحق والحقيقة - لا يحتمل الختل أو الميل.. فما بالك بهما إذا اجتمعا.

والقاضي - ومنه العدل - لا يكون خصماً وحكماً.

والعمل الواحد يدلي فيه الشركاء بالدلاء فتختلف أقدار خطاياهم، قدر ما يختلف نواياهم. والتاريخ يدين فساد السيرة وسوء السريرة. وعندما يقضي يصفى الوقائع ويمحص الشوائب ويحتفل بالإخلاص.

كانت سياسة (لافال) رئيس وزراء فرنسا في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وفيما قبلها، هي التقارب أو التحالف مع ألمانيا. وكذلك كانت سياسة بيتان - رئيس جمهورية فرنسا إبان الحرب - وكان ديغول هو العدو الأول لها. فلما وضعت الحرب أوزارها بهزيمة ألمانيا ثم صار ديغول رئيساً للجمهورية بعد بضعة عشر عاماً وسلك سياسة لافال وبيتان، كانت فرنسا قد أعدمت لافال إذ قبحت مسلكه وقبّلت في بيتان الظروف المخففة لإخلاقه. لكنها فيما بعد رفعت ديغول إلى القمة لأنها تترك الإخلاص في رأيه الأول ورأيه الأخير.

والتاريخ، الذي يمسك الميزان، يدين ابن أبي داؤد لمسلكه وهو يحمل وصف قاضي القضاة. ويدين الجاحظ لافتراءه وارتزاقه بأرائه. ويدين المأمون والمعتصم لابتزازهما آراء العلماء في مسألة دينية. ولا يغفر للوائح أعمالاً وأقوالاً منها قتل أحمد بن نصر من جراء رأيه في خلق القرآن وإن كان القتل في الواقع من جراء اتهامه بالمؤامرة^(١٦٣).

(١٦٣) استكثر المعتصم من الأتراك فاستجلبهم من سمرقند وفرغانة حتى بلغت عدتهم ثمانية عشر ألف مملوك - أو كما يقول المؤرخون الفرنجة خمسين ألفاً - واستندأبت كلاب الصيد على أصحابها وعلى أهل بغداد فملك المماليك مالكيهم.

قال أهل بغداد غضاباً للمعتصم: تحول عنا بهم وإلا قاتلناك - قال وكيف تقاتلونني وفي معسكري مائة ألف دارع؟ قالوا نقاتلك بسهام الليل (أي سهام الدعاء عليه في الليل): قال: والله مالي بها طاقة. وانتقل بجنده إلى مدينة جديدة بناها لهم أسماها سر من رأى فسمتها العامة سامرا اختصاراً لسر من رأى أو ساء من رأى.

وقول المعتصم عن دعاء أهل بغداد يعلي شأن الدعاء، ويعلم خروجه بجنده هرباً من بغداد. لكن الذي لم يعلنه هو أنه خرج بهم لينأوا عن دسائس الفرس الذين كانت لهم المكانة في بغداد.. فهذان ظلم من فوقه ظلم

للعرب. والرسول عليه السلام يقول: (اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا فإنه ليس دونه حجاب) والله تعالى يدفع عن المظلوم من سماء قدرته.

ومسؤولية المأمون في هذين الظلمين كبيرة فهو القدوة التي اقتدى بها من جاءوا بعده للارتقاء في أحضان الشعوبيين في حين لم يكونوا قادرين على المناورة السياسية قدرته. فارتموا في كل الأحضان. من الفرس إلى الترك إلى البربر.

وكان من منطق الأشياء أن يتلازم الميل في الدين والميل عن العرب:

لقد ورد كتاب المعتصم إلى والي مصر بإسقاط العرب من الجندية المنظمة وهو يمتحن الفقهاء والمحدثين والقضاة سنة ٢١٨.

وكان طبيعيًا من دولة تغير قلبها العربي فتصيره فارسيًا ثم تنقله فتجعله تركيًا ألا ينقضي عليها أعوام عشرة حتى يتوج الواصل بن المعتصم القائد التركي أشناس بتاج. ويلبسه وشاحين من جوهر. فيصيره ملكًا! ثم يفوض إليه السلطة ولا يستبقي لنفسه إلا شهواتها فككب فيها إلى آخر المدى.

إليك مثلاً من أمثال: جلس الواصل على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب، في قصر مفروش بالوشى والديباج، وهو يشرب رطلاً بعد رطل من النبيذ يسمع إلى الجارية فريدة وهي تغنيه:

أهابك إجلالاً وما بي حاجة إليك ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليل أنها قلتك ولكن قل منك نصيبها

وأخذته النشوة فضرب مغنيته برجله في صدرها فتدهورت نحو السرير. ثم قال: صنعت ذلك لأني تصورت أنك ستغنين بعدي للمتوكل ولما هلك الواصل اختفت فريدة - ولم يعثر عليها المتوكل إذ خلفه وفاقه في استهتاره بل في نقائصه. ومن هواه بوصيفته (قبيحة) أثر ابنها المعتز على ابنه الآخر الملقب بالمنتصر فتآمر المنتصر مع الأتراك على أبيه فقتلوه سنة ٢٤٧. ولم يهنأ القاتل بالخلافة إلا أشهرًا ستة مات بعدها. فولى الأتراك ابن عمه (المستعين) أحمد بن محمد بن المعتصم (٢٤٨ - ٢٥٢) ثم خلعه ثم قتلوه. وولوا المعتز... فقعد أصحابه يتساءلون كم يبقى؟ وأحضروا المنجمين! لكن الوحيد الذي أنطقه الله بالحقيقة قالها في شكل مزحة (يبقى قدر ما يريد الأتراك) وكانت إرادتهم في بقاءه قليلة إذ عزلوه في سنة ٢٥٥. ووقفوه في الشمس وحبسوه في بيت سدوه فمات فيه، ثم ولوا المهدي بالله، وكان صالحًا، لكنه ابن الواصل، قاتل أحمد بن نصر بيده، لم يمهله الأتراك ليحدث إصلاحًا فقتلوه بعد عام سنة ٢٥٦. ثم قول المعتمد ابن المتوكل، ولعلمه بقي ثلاثة وعشرين عامًا لأنه قنع من الخلافة باسمها. وهو القائل:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما هان ممتنعًا عليه
وتؤكل باسمه الدنيا جميعًا وما من ذاك شيء في يديه

وذاات يوم طلب ثلثمائة دينار فلم يجدها.

وخلفه المعتضد بن أخيه طلحة حتى سنة ٢٨٩، فاملكني بن المعتضد حتى سنة ٢٩٥ إذ مات. فولوا أخاه المقتدر وهو غلام. وثار البعض منهم عليه وولوا ابن المعتز ليلة واحدة ثم قتل سنة ٢٩٦. وابن المعتز هو الشاعر الكبير، وله الأرجوزة المعروفة وفيها لخص القانون الذي أخذ الأتراك به الدولة وسأخذونه به

كل يوم خليفة مقتول أو خائف مروع ذليل

وعاد المقتدر وهو غلام تسوس دولته أمه وقهر مانتها ثمل. فصارت القهرمانة تجلس للمظالم وتبرز التوقيع باسمها للناس!

ويطلب الترك إلى المقتدر أن يجيئهم بأرزاقهم من عند أمه فتجيئهم. ثم يقتله الجند في سنة ٣٢٠. وكانوا هذه المرة من البربر. ويتولى أخوه القاهر. فيصادر أم المقتدر ويعلقها منكسة من رجل واحدة ليستخرج منها مائة وثلاثين ألف دينار! ثم تأخذه السماء بعدلها، ويأخذه الأتراك بظلمهم، فيخلعوناه بعد عامين سنة ٣٢٢. ويفقتون عينيه ويولون الراضي بن المقتدر فكان الخليفة المخلوع - القاهر - قبل أن يقتلوه يقف بين الصفوف في جامع المنصور، كفيفاً، يتكفف، وهو يقول: تصدقوا علي فأنا من قد عرفتم.

وصار الراضي - كما يقول المؤرخون - آخر الخلفاء في أشياء يهمنها منها الآن أنه آخر الخلفاء في تدبير الملك. ففي عهده استولى ابن واثق التركي على السلطة وصارت فارس في يد علي بن بويه. والرى وأصفهان والجل في يد أخيه. والموصل وديار كبر وديار ربيعة في يد بني حمدان. ومصر والشام في يد الإخشيد وخراسان في يد بني سامان. والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الأموي.

وبقى الراضي حتى سنة ٣٢٩. وفي عهده قطعت يد الوزير ابن مقله، اليد التي كتبت الخط المشهور باسمه والتي أمرت بقتل الوزير الحسن بن القاسم وأودعت اليد في خزائن القصر! ليعثر عليها وعلى الرأس في سقط عليه البيان الذي أسلفناه ناطقاً بعدل السماء.

وفي سنة ٣٢٩ تولى المتقي بعد موت أخيه الراضي. وفي سنة ٣٣٤ خلع المتقي وسلمت عينه دون أن يقتل فكان أول مسمول تركوه! ثم تولى المستكفي بن المكفي ودخل البويهيون الغزاة عليه فنكسوا عرشه وسلموا عينه ليولوا "المطيع" بن المستكفي ليبقى في طاعتهم حتى سنة ٣٦٣ ثم يخلفه ابنه "الطائع" ويتتابع بقاء الخلفاء المطايع قدر ما يتركهم الأتراك. فمنهم من يبقى خمسة وثلاثين عاماً كالقادر بن المقتدر - ولا قدرة لهما - (٣٨٧ - ٤٢٢) أو خمسة وأربعين كالقائم بن انلقادر (٤٢٢ - ٤٦٧) أو سبعة وأربعين كالناصر بن المستضيء (٥٧٥ - ٦٢٢). وجلل الظلام مدينة السلام بعد أن تقاسمت الدولة سلطة الخلافة ولم يبق للخلفاء إلا الاسم من سنة ٣٣٤ حتى ٦٥٦ يوم دمر هولاكو مدينة السلام بخيانة الوزير ابن العلقمي فدخلها وقتل الخليفة وقتل الوزير الخائن.

الحكم في الامتحان:

تولى المتوكل الخلافة لست بقين من ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومائتين بتأييد من ابن أبي داؤد غلب به الوزير محمد بن عبد الملك الزييات الذي كان يرى استخلاف محمد بن الواثق وهو حدث.

وفي سنة ٢٣٣ أصيب ابن أبي داؤد بالفالج فولى القضاء ابنه محمد. وكان الجاحظ أيامئذ يلود بمحمد. فأشار به ليعلم ولي العهد. فدعى للقاء الخليفة في رجب سنة ٢٣٤ وقد ناهز الثمانين، والخليفة في الخامسة والعشرين، فاستبشع منظره وقال: ضجرت المشايخ وأريد أحداثاً يعلمون ولدي.

ومن أدب الجاحظ وصفه لقامته وسحنته قال: "ما أخرجني أحد مثل امرأتين إحداهما في العسكر وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام. فقلت لها أنزلي كلى معنا. فقالت: بل أصعد أنت حتى ترى الدنيا! وأما الأخرى فقالت: بي إليك حاجة، وأريد أن تمشي معي - فقمتم معها حتى أتت إلى صائغ يهودي فقالت له: مثل هذا... وانصرفت... فسألت الصائغ فقال "إنها أمرتني أن أنقش لها على فص صورة شيطان.. فقلت يا ستي ما رأيت الشيطان.. فأنت بك وقالت ما سمعت".

يقول ابن الطقطقي (فانظر منذ عهد المتوكل إلى عهد المقتدى ما جرى على واحد واحد من الخلفاء من القتل والخلع والنهب بسبب تغير جنده ورعيته. فهذا سمل وذلك قتل والآخر عزل...).

وحياة الدولة كلها دروس في عهد المقتدي (٥٥٥) ومن بعده. فهو خليفة المسلمين الذي أجلسه السلطان السلجوقي مسعود وباع له ثم أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب وأثاث وغير ذلك وانصرف وتلاه ابنه المستجد فخنقه أكابر دولته في الحمام سنة ٥٦٦ وولي بعده ابنه المستضيء حتى سنة ٥٧٥ فأكمل ما صنعه الأكابر بأبيه - قتل وزيره ابن البلدي وولاهم الوزارة والوظائف كما شرطوا عليه وولى بعده ابنه الناصر سبعة وأربعين عاماً سنة ٦٢٢ يقتزن طولها بانعدام الذكر لأمر ذي خطر وخلفه الظاهر فالمستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠) وخلف من بعده المستعصم ليقته الغزاة في سنة ٦٥٦ وتنتهي الدولة.

وكان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة وكان ندماؤه وحاشيته جميعاً (منهمكين في التمتع واللذات لا يراعون له صلاحاً.... ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب وفي تلك الحال وصل رسول السلطان الأكبر يطلب منه منجنقات وآلات حصار فقال بدر الدين انظر إلى المطلوبين وأبكوا على الإسلام وأهله).

ثم ضاق المتوكل ذرعًا بالمحنة أو بالقطيعة بين الأمة والخلافة. فبعث إلى الأمصار في ذي الحجة سنة ٢٣٣ ببطانها ^(١٦٤) وأثبت التاريخ مرة أخرى أن الملوك أحوج إلى العلماء من العلماء إلى الملوك. ودعا الخليفة المحدثين ليجلسوا للناس ويردوا قول المعتزلة ويحدثوا بأحاديث الرؤية وإثبات الصفات لله جل وعلا. فجلس عثمان بن أبي شيبة (٢٣٩) في بغداد ليجتمع عليه ثلاثون ألفًا في المجلس وجلس أخوه أبو بكر بن أبي شيبة (٢٣٥) في مسجد الرصافة ليجتمع حوله ثلاثين ألفًا أخرى.

ودار الزمن دورته. فأدار وجهه يعتذر للرجل الذي رفع رأسه عاليًا في وجه الزوابع. وتتابع العبر. فأما الذين زينوا قتل أحمد بن نصر فيحرق أولهم: "محمد بن عبد الملك الزييات". "وهرثمة" يقطعه الناس إربًا إربًا. أما الجلال الذي جلد أحمد بن حنبل - "أبو العروق" - فمكث أربعين يومًا ينبج قبل أن يموت نباح الكلاب... ويصاب ابن أبي دؤاد بالفالج. ويعزل ابنه محمد من القضاء. ويموت الابن في حياة الأب. ثم يموت الأب في أسوأ حال.

وأخذ المعتزلة أخذه رابية، فشرذوا وجردوا واقمعوا في أقماع السمس. أما الجاحظ رفيق المأمون، وهو يموت بالبنددون، فيبقى سنين تتوافر عليه فيها العبر، ليرى الناس رأي العين الكاتب الذي هزأ بالكثيرين وهو يستدر العطف. ويشكو إلى الخلق. حيث لا تنفع الشكوى.

يقول المبرد: دخلت على الجاحظ في آخر أيامه وهو عليل فقلت كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج، ولو نشر بالمناشير لما أحس به، ونصفه منقرس لو طار الذباب بقره لآلمه!

وجعلت الأمة الإمام الممتحن امتحانًا هو ذاته. يقول الشاعر ابن أعين:

أضحى ابن حنبل حنة مأمونة وبحب أحمد يعرف المتنسك

الحكم في المتوكل:

وبدأ الفصل الثالث من مأساة ثلاثية الفصول. الأول: المأمون يعرض على السيف أحمد بن حنبل. والثاني: المعتصم يشرع في قتل أحمد بن حنبل. والثالث: التاريخ يعيد أهل السنة إلى مكانتهم وينكل بالمأمون والمعتصم وبنيهما وذريتهما.

في هذا الفصل جاءت الدنيا بالذين لهم الكبرياء في الأرض يعوذون بالإمام. أو يفتنونه فتنة جديدة بالبهرج والمال والرفاه في كنف السلطان.. وقديماً قال فيليب المقدوني – أبو الإسكندر الأكبر – "كل القلاع تقتحم إذا نفذ إليها جواد يحمل الذهب".

اشتد المتوكل على العلويين سنة ٢٣٦. وكانت بغداد تلغنه صباح مساء والناس يكتبون شتمه على الحيطان والمساجد. وكلما علم بشيء من ذلك زاد وأفحش. لكن يد الخلافة التي لا تطاولها يد تمتد في وقت شدتها طالبة رضاء الشعب.

بعث الخليفة إلى أحمد في سنة ٢٣٧ ليحمل مكرماً إليه في العسكر.. ولبى الإمام.

وفي الطريق جن عليه الليل فبات بمسجد في موضع يقال له بصري. ولم يرض أن ينزل في خان مشيد على طريق البريد. ثم فوجئ السفر بأمر الرجوع إذ رفع الوشاة أن أحمد يؤوى في داره علوياً. ووجه الخليفة حاجبه الخاص وصاحب البريد ذاته ليفتشا الدار ففتشها. وفتش النساء امرأتان تعملان لصاحب البريد. ودلوا شمعة في البئر فلم يجدوا شيئاً.

ثم جاء كتاب علي بن الجهم، نديم الخليفة وشاعره، يعلن ثبوت البراءة ويدعو الإمام للقاء الخليفة ويحمل جائزة قدرها عشرة آلاف درهم. وكلمة خاصة من ابن الجهم: إياك.. إياك.. أن تستعفي أو ترد الجائزة.

وقبل أحمد النصيحة ولم يمد بصره إلى الجائزة. وأمر ابنه صالحاً بحفظها عنده حتى يسفر الصبح. وركبه الهم فلم ينم. وجعل يبكي ويتعجب: أسلمت من هؤلاء حتى إذا كان آخر عمري بليت بهم!

وفي الصباح فرق المال في أبناء المهاجرين والأنصار. ثم إلى فلان وفلان ليصرفه كل منهم في ناحيته. حتى الكيس نقضه وتصدق به.

وكتب صاحب البريد إلى الخليفة بتفريق المال في الناس. وهون عليه الأمر علي بن الجهم فقال له وهو ينادمه: يا أمير المؤمنين قد علم الناس أنه قبل منك. وما يصنع أحمد بالمال وقوته رغيف؟ قال الخليفة: صدقت.

وفي العظام تتجلى أصالة العظماء. ويصدر تفكير الدقيقة الواحدة عن بصيرة أصيلة طال عليها العهد في ممارسة العظمة، واحتمال المسؤولية أمام الله والناس. ومن أجل ذلك تعتبر هنات العظماء من الكبر. وتظهر فرطات العلماء، ناصعة بقاء، كأنها فوق منبر.. أما الأئمة فلا يهفون وإن مشوا في الظلمات. لأنهم يمشون مع الله. يد الله فوق أيديهم.

وصل أحمد إلى المعسكر مدعواً من الخليفة. فإذا الرجل الذي رفع رأسه في وجوه الجبابرة الثلاثة - المأمون والمعتصم والواثق - يراه الناس يمشي منكس الرأس تواضعاً لله في مقام الانتصار.. وتذكيراً للمسلمين بالضعف الإنساني في مركز القوة. أو لعله كان يخشى أن تستزله النعمة فيقبل على دنيا مقبلة!

وبعد حين جاءه رسول يقول: "إن أمير المؤمنين يكثر ذكرك ويشتهي قربك.. وأن تقيم هنا تحدث" فأجاب أحمد: أنا ضعيف ووضع يده على بعض أسنانه وقال: إن بعض أسناني تتحرك وما أخبرت بذلك ولدي.

وكان الخليفة قد أمر له بعشر آلاف درهم مكان التي فرقها في الناس وأمر ألا يعلم أحمد بذلك حتى لا يعتم.

ثم صار إليه الوزير يحيى بن خاقان يعرض وظيفة أخرى. قال: إن الخليفة أمر أن تكون لك مرتبة في أعلى المراتب. وأن يكون ولي عهده في حرك. وأضاف أنه أمر بجرابة أربعة آلاف درهم (شهرياً) على أحمد وعلى قراباته.

وفي الغداة سحب الوزير أحمد إلى دار ولي العهد - وكان الخليفة قاعداً خلف ستر يتطلع دون أن يظهر أحمد عليه. وكانت أم الخليفة إلى جواره - فقال لأمه أن رآه: "يا أماء قد دخل رب الدار أو قد نارت الدار".

ثم جيء بطيلسان وقلنسوة وقميص فألبسه الوزير إياها.

فلما عاد أحمد إلى داره بالعسكر جعل يبكي ويقول: "سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان آخر عمري بليت بهم! ما أحسبني سلمت منذ دخولي على هذا الغلام فكيف بمن يجب على نصحه من وقت أن تقع عليه عيني إلى أن أخرج من عنده).

* * *

وفي غرف القصور، وإن كانت معاطير، زهمة تزكم الخياشيم وأساطير وسير نقض المضاجع... فلقد عرف الإمام أن الدار التي ينزلها إيتاخ.. وما أدراك ما إيتاخ؟

إيتاخ طباح ركي، غلام لسلام بن الأيرش - وكان على سجن الرشيد - رأى فيه المعتصم رجله وبأسًا. فشراه وقربه ليضيف به إلى الأتراك الذين اشتراهم سببًا جديدًا من أسباب محنة العرب. ثم ولاه الوثائق الأعمال الجلييلة - كما يعبر المؤرخون - فكان من أراد لمعتصم والوثائق والمتوكل قتله سلموه إليه. فقتل سادات العرب: "عجيف" القائد و "العباس" بن المأمون أما محمد بن عبد الملك الزييات.. فحرقه في التنور. وفي سنة ٢٣٤ فوض إليه المتوكل فوق إمارة مصر إمارات الكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة بل دعى له على المنابر! لكن هذا الإغداق بالولايات كان ذرًا للرماد في عينيه، ليكلف المتوكل اسحق بن مصعب بالقضاء عليه إذ يرجع من الحج.. فأحيط به وهبض جناحه. واقتيد في الحديد. وقتل صبرًا في سنة ٢٣٥.

استعفى الإمام من البقاء في دار إيتاخ، فاستأجروا له دارًا كالقصر. فاستعفى منها. فاكثرته له دار بمائتي درهم. وضرب له في ضيافة الخليفة الخيش وفرش الطبري.

ولما رأى الحشايا والنمارق والفرش الرافهة تنحى، وألقى بنفسه على مضربة له، وأصر على أن يطعم طعامه العادي. فكان يمكث ليلي ثلاثًا لا يتناول الطعام.

فإذا كانت الرابعة وضع بين يديه قدر ربع سويق فرما شربه، وربما ترك بعضه. وكان إذا ورد عليه شيء يغمه صام ولم يفطر إلا على شربة ماء. فجعل يواصل الصيام ويفطر لك ثلاثة أيام. وعلى تمر.. فمكث خمسة عشر يومًا يفطر كل ثلاث، ولا يفطر إلى على رغيف. فإذا جاءت المائدة نأى بجانبه حتى لا يراها.

فإذا جهده الحرب ألقيت له خرقة فيضعها على صدره.

وكان طبيعياً أن تسوء صحته وأن يوجه إليه المتوكل طبيبه ابن ماسوية فيرى صحته تسوء فيقول الطبيب للخليفة: إنما هو من قلة الطعام وكثرة الصيام والعبادة. ويقول لأحمد: "يا أبا عبد الله ما بك من علة إلا الضعف". ويجيئه بالدواء فيصبه أحمد ولا يتعاطاه.

وأمر المتوكل بشراء دار له فتخالج في صدره أن بقاءه في القصر مطلوب أن يدوم. فأمر ابنه صالحاً ألا يقرهم على شراء دار أو لصالح. وقال له: لئن أقررت لهم.. بشرائها لتكونن القطيعة بيني وبينك. إنما يريدون أن يكون هذا البلد لي مأوى أو مسكناً ولم يزل يدفع شراء الدار حتى اندفع.

* * *

وجعلت الرسل تأتيه فرادى ومثاني من قبل المتوكل. وفي خلال اللقاء يقال: لا بد أن يراك - فيسكت. فإذا خرجوا قال: "أما تعجب من قولهم لا بد أن يراك؟ وما علمهم أنه لا بد أن يراني؟"... وكأنما يشير إلى أن له في الرؤية الكلمة، لا للhashية، ولا يدرك أنهم يهيئون نفسه بما يشبه الهمس إليها بأمر سوف يقع.. فقد جاءه، بعد، رسول يقول: أمير المؤمنين مشتاق إليك ويقول انظر اليوم الذي تصير إليه فيه حتى أعرفه.. قال أحمد: ذلك إليكم... قالوا يوم الأربعاء خال.

لكن الخلاص من اللقاء جاء قبل الأربعاء: إذ أقبل عليه من الغد رجل ينبئه: أن أمير المؤمنين أعفاه مما يكره. وقال الرجل أبشر أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك قد أعفيتك من لبس السواد، والركوب إلى ولي العهد، وإلى الدار (القصر). فجعل أحمد يحمد الله عز وجل. وهذه إحدى الدعوات الثلاثة التي استجيب إلى اثنتين منهن هما ألا يلقي المأمون وألا يلقي المتوكل.

ولم يفت رجل الحاشية أن يلتقط شيئاً لنفسه وابنه فقال لأحمد: إن لي ابناً فأحب أن تحدثه بأحاديث... فرفض.

وأزعجه أن تمد الموائد فيطعم مع الطاعمين ابناه. فهما في رفقته. فجعل بإرجاع ثياب صالح إلى بغداد، وكان انحدر إليها، كيلا يرجع. وقال لعبد الله وهو يحمله ثياب أخيه: "قل لصالح لا تجيء.. فأنتم كنتم آفتي. والله لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أخرجت واحداً منكم معي. ولولا مكانكم لمن كنت توضع هذه المائدة؟".

وزاد جوعاً وهزلاً حتى لنبيه ذات ليلة أبا بكر المروزي - وقد أصبح يسمى خادم الصديقين - ويقول له: "هو ذا يدار بي من الجوع. فأطعمني شيئاً" فجاء أبو بكر بجزء من رغيف فأكل وقال: "لولا أنني أخاف العون على نفسي ما أكلت".

وكان يقول: "إنني لأتعجب كان قوتي فيما مضى أربعة أرغفة. وقد ذهبت عني الشهوة في الطعام فما اشتهيته! قد كنت في السجن آكل وذلك عندي زيادة في إيماني وهذا نقصان...".
لقد كان مطمئن النفس في السجن فكان يأكل... وزايلته السكينة مع النعمى في أكتاف الخليفة، فصار لا يأكل.

قيل له يوماً لو أمرت بقدر تطبخ لك لترجع إليك نفسك فأجاب: "الطبخ طعام المطمئنين - مكث أبو ذر ثلاثين يوماً لا طعام له إلا ماء زمزم وهذا إبراهيم التيمي كان يمكث في السجن كذا وكذا ولا يأكل. وهذا ابن الزبير كان يمكث سبعا".
قال المروزي: منذ دخل العسكر لم يذق طيبخاً ولا دسماً.

وركبه الهم من محنة النعيم المقيم بجوار الخليفة وإن كان لا يصيب منه. فلم ير لنفسه ترحجاً إلا بأن يتمنى أن يموت.

قال للمروزي: "إنني لأتمنى الموت صباح مساء لقد تفكرت البارحة فقلت هذه محنتان. امتحنت بالدين - يقصد في القرآن - وهذه محنة الدنيا".

لا جرم كان صينع الأستاذ في مخيلة التلميذ حين قال أحمد بن أبي الحواري: "إذا حدثتك نفسك بترك الدنيا عند إدبارها فهو خدعة.. وإذا حدثتك بتركها عند إقبالها فذاك...".

ولقد أحصوا ما رفضه من أموال فكان سبعين ألفاً!

وازداد هزلاً وهماً.. حتى جاءه الفرج ليخرج من القفص الملكي. وكان علي بن الجهم ويحيى بن خاقان يعملان على إخراجه.. قال علي: يا أمير المؤمنين هذا رجل زاهد لا ينتفع به فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له؟ ولم يقبل منه الخليفة. لكنه قبل كلام يحيى بن خاقان.

وبعد أيام جاء الإذن بتخلية سبيل الإمام! يحمله عبد الله بن يحيى بن خاقان. ثم جاءوه بحراقة تمخر به عباب دجلة إلى بغداد فرفض فخامة الحراقات. والتمس زورقاً انحدر فيه من ساعته، حتى إذا خرج من النهر إلى شاطئ بغداد وعليه الكساء الذي خلع عليه سقط الكساء، فجعل يجره وما سواه عليه.. لقد كان يكره أن يمسه.

ولم يكد يبلغ داره في بغداد حتى ألقى نفسه على قفاه من التعب والعياء. وأمر أن تباع الثياب التي ألبسها في العسكر والتصدق بثمنها. ولم ترجع إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر من رجوعه إلى داره.

ولم تكن الأمور تأذن برضي أو استبشار والخليفة في غمه تشجوه همومه، يبحث لنفسه عن عاصمة جديدة تتجيه من سيطرة الترك في سر من رأي... فهو مرة في دمشق الشام ومرة في المدائن بفارس. والترك تتحين الفرص. والحاشية أوزاع يستوحش كل فريق من صاحبه. والأمة بين هؤلاء وأولاء في ضياع. والمثل الصالحة قليلة تكاد لا تعرف. والعلم يكاد يتمحض وسائل للدنيا. فصار الإمام يبدي ويعيد في شعاره المجيد: هذا زمان مبادرة.. هذا زمان عمل.

ويحدث أحاديث المسند ويقول للناس: ما كان الناس إلى الحديث والعلم أحوج منهم في زماننا.

* * *

لكن السر الذي أخفاه ابنه وعمه وشارك فيه الخليفة والحاشية ينكشف له: فقد فوجئ بأنهم تجري عليهم جارية من الخليفة.. فحدثهم ألا يأخذوها أو يصطنعوا الحيلة بتوكيل من يأخذها باسمهم. ويروي صالح للأجيال مشهداً إنسانياً بين الإمام وأهله جديراً بتسجيله:

قال: قد علمت أنكم تأخذون هذا بسببي. فإذا أنا مت فأنتم تعلمون.. فسكت.

قال مالك: قلت أكره أن أعطيك شيئاً بلساني وأخالف إلى غيره فأكون قد كذبتك ونافقتك وليس في القوم أكثر عيلاً مني ولا أعذر. وقد كنت أشكو إليك فتقول: أمرك منعقد بأمرى ولعل الله أن يحل هذه العقدة وقد كنت تدعو لي فأرجو أن يكون الله عز وجل قد استجاب لك.

فقال: لا تفعل. قلت: لا.

قال: قم. فعل الله بك وفعل.

ثم أمر بسد الباب بيني وبينه.. فتلقاني عبد الله فسألني فأخبرته. فقال ما أقول؟. قلت ذاك إليك.. فقال له مثل ما قال لي: فقال لا أفعل. فكان منه نحو ما كان منه إلى.. ولقينا عمه فقال لم أردتم أن تقولوا له وما كان علم إذا أخذتم شيئاً. فدخل عليه فقال: يا أبا عبد الله لست آخذاً من هذا شيئاً. فقال الحمد لله...

فهجرتنا وسد الأبواب بيننا وتحامى منازلنا. وقد كان قديماً قبل أن نأخذ من السلطان يأكل عندنا. فلما مضى نحو شهرين كتب لنا بشيء فجئ به إلينا فأول من جاء عمه فأخذ. فأخبر فجاء إلى الباب الذي كان سده بيني وبينه، وقال: ادعوا لي صالحاً فقلت: لست أجيء.. إذا كان توبخ خصصت به أنا!... فمضى..

فلما نادى عمه بالأذان خرج فلقد كان مؤذن المسجد - فلما فرغ من الصلاة التفت إلى عمه ثم قال: يا عدو الله نافقتني وكذبتني وكان غيرك أعوز منك. ثم هجرة وترك الصلاة في المسجد. وخرج إلى مسجد آخر يصلي فيه".

وكانت الدار لزيقة بالمسجد، فأثر أن يتجشم المسير إلى مسجد سدره البعيد يصلي فيه الجماعات والجمع.

هذه الوقائع الإنسانية البسيطة تظهرنا على محنة أخرى لأحمد في أهله، ولهم فيه، من جراء أموال السلطان. وعلى مبلغ الصدق في الزهد بتطبيقه على أكبادته التي تمشي على الأرض، حتى إذا عجز عن أن يهدي من أحب رضى بقضاء الله في بنيته، وقنع بأن يسد بينه وبينهم الأبواب، وهو يتزاحف نحو الثمانين، فقد مسه الكبر ووهن منه العظم.

لكن أفئدة البنين تخفق وترق. فما أحلى الحوار بين الوالد وولديه وبين الأقدار.. والله يسمع تحاورهم:

يقول صالح: "ثم وجهت إليه ان هذا الأمر طال بيني وبينه وقد اشتقت إليك فشكت.. فأكبت عليه وقلت: يا أبة تدخل على نفسك هذا الغم! قال يا بني هذا ما لا أملكه.. ثم مكثنا مدة لم نأخذ شيئاً. ثم كتب لنا بشيء فقبضناه فبلغه ذلك. فهجرتنا شهراً.. فكلمه فوران فقال له: لقد كان أحب الخلق إلي. وأي شيء أردت له إلا ما أردت لنفسي! وقلت يا أبة: ومن رأيت ممن

لقيت قوى على ما قويت أنت عليه! قال: وتحتج علي؟ وكتب إلى يحيى بن خاقان يعزم عليه ألا يعيننا على شيء من أرزاقنا. فلما وصل رسوله بالكتاب أخذه صاحب الخبر فأخذ نسخه ووصلت إلى المتوكل فقال: كم من شهر لولد أحمد بن حنبل؟ فقبل عشرة أشهر قال: يحمل إليهم الساعة أربعون ألف درهم ولا يعلم بها أحمد. فوجهت إلى أبي من أعلمه فسكت قليلاً وقال: ما حيلتي إذا أردت أمراً وأراد الله عز وجل أمراً؟

* * *

ومضت الأيام ومن المتوكل ببغداد في طريقه إلى المدائن. فخرجت للقائه يتقدمها العلماء. ولم يخرج أحمد. ونهى صالحاً عن الخروج.

فلما كان بعد يوم جاء يحيى بن خاقان فجعل يخوض في الطين في زقاق أحمد حتى بيته. وعلى البيت ستر هو قطعة خيش.. أما صاحب البيت فعليه كساء مرقوع. فأقرأه سلام أمير المؤمنين. وأنبأه أنه يسأله الدعاء له. وأنه بعث إليه ألف دينار يفرقها على ذوي الحاجة.

قال أحمد: يا أبا زكريا أنا في البيت منقطع عن الناس وقد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره.

قال يحيى: يا أبا عبد الله: الخلفاء لا يتحملون هذا كله!

فقال أحمد: يا أبا زكريا لا تلتطف في ذلك.

قال يحيى: لو وجه إليك بعض إخوانك.. هكذا كنت تفعل؟ قال نعم.

وانصرف الوزير وودعه صالح. ولما صار إلى الدهليز قال يحيى لصالح: قد أمرني أمير المؤمنين أن أدفعها إليك تفرقها. قال صالح: تكون عندك حتى تمضي هذه الأيام.

ومكث الخليفة يسأل عنه ويوفد إليه يستشيريه في أشياء تقع له. ولما كتب إليه رجل أن يشتم آباءه كتب بيده على الشكوى ما برر القدح فيهم قال:

"أما المأمون فإنه خلط فسلط الناس على نفسه. وأما أبي المعتصم فإنه رجل حرب. ولم يكن له بصر بالكلام. وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه" وأمر بضرب الشاكي مائتي سوط، فرضبه عبد الله بن إسحق بن إبراهيم خمسمائة! ولما راجعه الخليفة في افتياته في تنفيذ

أمره قال: ضربته مائتين لطاعتك. ومائتين لطاعة الله. ومائة لكونه قذف هذا الرجل الصالح أحمد بن حنبل! هكذا صار أحمد عند ابن اسحق بن إبراهيم وإلى بغداد للمؤمن والمعتصم!

وأصبح المتوكل يقول للناس: "لو نشر المعتصم وقال لي فيه شيئاً لم أقبله".

وسيبقى ولاء المتوكل لأحمد حتى بعد موته إذ يشكو صاحب الخبر ما شجر من الفتن بين أتباع أحمد وبين أهل البدع فيقول الخليفة: "لا ترفع لي من أخبارهم شيئاً وشد على أيديهم. فإنهم وصاحبهم من سادة أهل محمد، وقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه ورفع علمه أيام حياته وبعد موته، وأنا أظن أن الله تعالى يعطي أحمد ثواب الصديقين".

وكان ثمة حدث واحد باق حدوثه لتدور الدنيا دورة كاملة بالذين ظلموا الإمام هو جزاء أحمد بن أبي دؤاد في الدنيا.. فتلاحقت عليه المحن من مرض الفالج، إلى غضب الخليفة عليه، وابنه محمد، إلى حبس محمد، إلى بيع ضياعهما. وإذا هذا المعتزلي الطلق اليبدين الندي الكفين، الذي باهى المعتصم وصحبه بأنه لا يسأل شيئاً لنفسه، وإنما يسأل للناس، يظهر أن ثروته وثروة ابنه محمد - وكان مسيكا - قد بلغت ستة وعشرين مليون درهم وجواهر بقيمة عشرين ألف دينار!

ومات ابن أبي داود - الابن - فذهبت نفس أبيه حسرة عليه. فمات بعد أيام عشرين، سنة ٢٤٠، وهو في الثمانين مسجوناً في جلده. كما قال له شامت فيه. وانتهى الاعتزال من وظائف الدولة وراح يعالج سكرات الموت في سائر معاقله.

* * *

لم يكن لأحمد أمل في إصلاح الخليفة أو اتخاذه سبيلاً للإصلاح ولا كان ثمة جدوى في مقارنته.

لقد خلط أبو يوسف حياته بدنيا الرشيد على نقيض نصيح أبي حنيفة، فذكر التاريخ زفر على أنه أروع من أبي يوسف. ولئن نجحت تجربة أبي يوسف مع الرشيد، إنها نجحت لإصلاح الرشيد أكثر من نجاحها بصلاحية أبي يوسف.

وابن المتوكل من الرشيد.

وأين من لا يسمع ممن كان يسمع. يقول ابن السماك - محمد بن صبيح - (١٨٣) للرشيد: إن لك بين يدي ربك مقامًا. وإن لك في مقامك منصرفًا فانظر إلى أين منصرفك إلى الجنة أو إلى النار.. وبيكي الرشيد حتى يقول المدهنون أرفق بأمر المؤمنين، فيقول ابن السماك: دعه فليمت. حتى يقال: خليفة المسلمين مات مخافة الله. وكان الرشيد يستمع إلى الفضيل بن عياض فيغشى عليه..

وكان الجواري مئات في قصره. لكن منهن مائة يقرآن القرآن فكانت أصواتهن تسمع كدوي النحل. أما جواري المتوكل فمكسالات، وأما السراوي فآلاف من نفس الطراز! ومن الوفاء مشى الرشيد في جنازة أمه وأخذ بقائمة التابوت حافيًا يخوض الطين والوحل من مطر ذلك اليوم. ومن عدم الوفاء الذي بذره المتوكل شارك ابنه في قتله.

ومن الإسلام كان دخل أم الرشيد ستة آلاف وستين ألف درهم في العام.. تتفقها في الصدقات.. ومن النقيض للإسلام أن تموت أم المتوكل فيظهر عندها خمسة ملايين دينار هي أموال الأمة.

وكانت دولة الرشيد في يده لكن دولة المتوكل كانت في أيدي الآخرين.. فإذا صار له من الأمر شيء، فهو فيه مثل سيء للإسراف والإتلاف والسفك.

لقد أمر بعد استخلافه بأربعين يومًا بوزيره ابن الزيات فسجره إيتاخ في التتور فحرق.. وأخذ أمواله! ومن بعد ذلك عزل قاضي القضاة يحيى بن أكثم وأخذ أمواله (١٠٠ ألف)! وأمر بضرب الكندي، فيلسوف العرب، وأباح مكتبته الشهيرة لبني شاعر المنجم، فنهبوها. حتى إذا جاء دورهم من بطئه لم ينجو إلا بوفاته وكان يستعمل العمال ويستوزر الوزراء وينكبهم..

عزل عمر الرخجي والي دمشق وحبسه، فمات في محبسه. واستوزر الجرجرائي ثم عزله. واستوزر ربا الوزير ثم عزله ونكبه في مائتي ألف. وكان أقسى بني العباس على أهل البيت. وطغى على أهل الذمة فألزمهم بلبس الطيالة العسلية وأن توضع على منازلهم صور شياطين! ومن أجل هذا الكيد الذي يستكره المسلمون ويعتبر صبيانًا إذ ذكر إلى جوار الذبح للتنصير والذبح للتفتيش عن صحة التنصير! الذي أصاب المسلمين على أيدي محاكم التفتيش بالملايين في أسبانيا. لقب المؤرخون الغربيون المتوكل (نيرون المسلمين).

وربما كان وجه الحق في جملة أمره: أنه كان يغرق همومه في الشهوة، ويخفي خوفه بالقسوة، ويغطي فقره النفسي بمظاهر الغنى والعظمة.. والترك آخذون بناصيته. وهو يكاد يدرك مصيره.

ولم يظهر أحد ما أظهره من الإسراف في أموال المسلمين ^(١٦٥) - والعبت والهزل وبالمضاحك.. كان له في تشييد القصور تصرفات كالخرافات. ومنها قصران كفاء - وحدهما - مائة ألف جرههم هما الهاروني والجعفري... أما قصر العرويس بسامرا فكلفه ثلاثين ألف ألف درهم. ولا عجب أن تكون لك نوبة من نوب الفراشين في هذه القصور أربعة آلاف قرش! أو ينام الرجل الذي كان يجب ألا ينام، وهو بين نداماه فينصرفون بما على موائده من قصائد الشعر! بل كان يهاجم الجلساء ويسف ويسخف.

فإذا صحا من خمره فأكثر فكره في جواريه. يهدي إليه محمد بن عبد الله ابن طاهر - نائبه على بغداد - ثلثمائة جارية! وله أربعة آلاف سرية - أو أكثر - أما فراشه فمخصص له خمسمائة وصيفة.. أحظاهن عنده "قبيحة".

خرجت إليه يوم عيد النيروز وفي يدها كأس تساقيه، فتناولها. وقبلها. وإذا على خدها مكتوب "جعفر" ثم اندفعت تغني:

فيا من منالها في السريرة جعفر سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا

وأمر جعفر (المتوكل) عربياً المغنية فغنت كلماتها.

(١٦٥) بلغ مجموع ما أنفقه في بناء القصور مائتين وتسعين مليون درهم هي ثلاثة أرباع دخل الدولة الإسلامية من أقطار العالم - في عام! وكان إيراد المال في عهده في نقصان - بلغ إيراد بيت المال في عهد المأمون ٣٩٠ مليون درهم بما فيه الضرائب العينية وبلغ إيراد بيت المال في عهد المعتصم ٣٨٨ مليون درهم بما فيه الضرائب العينية وبلغ إيراد بيت المال في منتصف القرن الثالث حوالي (٢٩٩.٢٦٥.٠٠٠ مليون).

وذاات يوم طلب إلى شاعره علي بن الجهم أن يقول شعراً. فقال ثم أمر فضل الشاعرة أن تجيزه فأجازته. ثم أمر معنية فغنته!

لقد تجمعت على عائق المتوكل مواريث الفساد الشخصي والاجتماعي والسياسي من آبائه، كما تتراكم الأقسام المؤجلة فنحل يوم الحساب. ولم تك صدقة ولكن كان من منطق التاريخ أن تنتهي، عام ولايته، المائة العظيمة من عمر الدولة وتبتدئ قرون الدمار الذي لا راد له.

* * *

فأي مكان للإمام المسلمين في جواره؟ وأحمد يقول لأحمد بن سعيد الرباطي: هل بد يوم القيامة من أن يقال: أين عبد الله بن طاهر "وأتباعه". انظر أين تكون أنت منه!

والأئمة يضعون أنفسهم كالقادة في معاركهم حيث لا يأسرهم العدو، أو تفقدهم جيوشهم عند الصدمة الأولى، أو يفقدون قدرتهم على العمل، أو صلاحيتهم للأسوة الحسنة.

قال اسحق بن حنبل ذات يوم للإمام لو دخلت عليه - المتوكل - فإنك تكرم عليه فأجابه: "إنما غمی من كرامتي عليه".

وقال له والخليفة يضيفهم، والإمام يدعو الله ألا يراه: "لماذا لا تدخل عليه تأمره وتنهاه؟ فإنه يقبل ذلك منك. هذا إسحق بن راهويه يدخل على ابن طاهر، يأمره ينهاه".

وأجاب أحمد: "تحتج علي بإسحق" فأنا راض بفعله؟ ماله - يقصد المتوكل - في رؤيتي خير ولا لي في رؤيته خير. يجب على إذا رأيته أن أمره وأنهاه. الدنو منهم فتنة والجلوس معهم فتنة. نحن متباعدون منهم وما أرانا نسلم. فكيف لو قرينا منهم".

ولقد تواترت دلائل الصحة في قول الإمام، وهم متباعدون. وتظاهرت عوامل الفتنة على شخص إسحق، وهو غير بعيد. ففتنته أموال الخليفة مثنى وثلاث. أخذها وأخفى أمرها، ولم يصدق يوم أنكر أنه يأخذها، وفتنت الأولاد، فقبلوها على رغم أبيهم، فسد الباب الذي يصله بهم، ولبنوا سنين بعد موته، فزعين من غضباته، كلما جاءهم خير من السلطان.. ولشد ما بكى صالح وهو يتلقى مقاليد القضاء اعتقاداً منه أن عمله يسخط أباه لو رآه.

ولو قبل أحمد ما نبأه به الوزير - أن تصير له مرتبة في أعلى المراتب ويصير ولي العهد في حجره - لما ارتفع أحمد، ولا انتفع المسلمون، وربما كان أحمد قد نزل. وكان لزاماً أن يحدث صداماً بالمتوكل فيضيع على المسلمين بعض الخير الذي توجه المتوكل تلقاءه.

إن المتوكل سيطلب - بعد موت أحمد بعام - إلى ابن السكيت عالم النحو العظيم رأيته في ابنيه، وقد صار معلماً لهما، أهما أفضل أم الحسن والحسين؟ فلما أجاب بالحق أمر الترك فداؤا بطنه وقتلوه.

إن ولي العهد هذا سيكون عنوان الدولة التي تدمر نفسها بأعمالها، فيجازي أباه بقتله، ليفوق إجرامه أفضله المثلات في عهد كراكلا (٢١٧) الذي قتل أخاه وولى عرشه، فذبح بعد سنوات ستة طلب في إبانها إلى الفقيه بانيان تبرير فعلته التي فعلها فأجابه: (إن قتلك أخاك أيسر من تبرير الفقيه له) إلى عهد إيرين بعد ثمانى قرون تأمر بابنها فتسمل عينه حتى لا يعود إلى منازعتها الملك! والمتوكل وابنه أشبه الناس بنبيرون عندما صار إمبراطور الرومان (٥٤-٦٨ ق. م) فتقل معلمه سينيكا

* * *

يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فهذا فرض كفاية على الجميع، يسقط عنهم بفعل بعضهم، وللقائم به فضل على الباقيين إذ هو يسقط الفرض عن نفسه وعن غيره.

ويقول عليه الصلاة والسلام: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" وإنما وصف التغيير بالقلب بأنه أضعف الإيمان ليكون حصناً للقادر على التغيير بلسانه وبيده على أن يتكلم بلسانه أو يمل بيده.

ويرى أكثر المحدثين وعلى رأسهم أحمد بن حنبل أنه يكفي للقيام بهذا الواجب القلب واللسان إن قدر عليه: ولا يصح الالتجاء إلى القوة: وقد رأى ذلك سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة من عظماء الصحابة إذ اعتزلوا القتال بين علي ومعاوية.

ومن أهم الاعتبارات في الدعوة إلى المعروف أن تكون مثمرة. وألا تؤدي إلى تغالي مرتكب المنكر فيما يفارقه. وهي واجبة عندما تكون محققة النفع دون أن يصيب الداعي ضرر. مستحبة إذا كانت مفيدة وإن أضرت الداعي. وقد تستحب إذا لم تنفع ولم تضر لإظهار شعائر الإسلام وتذكير المسلمين بدينهم. ولما سئل عليه الصلاة والسلام: "ألا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهي عن المنكر حتى نجتبه كله. أجب: بل أمروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله. وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله".

وفي الدخول على الولاة للإرشاد أو الشفاعة كلمة معلمة لعقمة النخعي أستاذ الكوفة في منتصف القرن الأول. قيل له: ألا تدخل على السلطان فتشفع، فأجاب: لا أصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من ديني مثله.

وفي آخر القرن كان عمر بن عبد العزيز - بحكم صلاته بابني عمه وصهره، الوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان - لا يألوهما نصحاً. ومع ذلك حبسه الوليد من جراء نصحه، وكل منهما زوج لأخت الآخر! ومن أجل دولة الوليد ولاءه على المدينة ثم عزله مؤثراً فساد الحجاج على صلاح عمر بن عبد العزيز! وضاق سليمان ذرعاً بوعظه، مع اعتزازه به، وكان في وعظه حدة.

كتب سليمان إلى أسامه واليه على مصر: احلب الدر حتى ينقطع واحلب الدم حتى ينصرم" ففعل الوالي بأموال الناس وأشخاصهم أفاعيله. وجلس سليمان يباهي به.

قال الخليفة: هذا أسامة لا يرتشي ديناراً ولا درهماً.

قال عمر: أنا أدلك على من هو شر منه ولا يرتشي ديناراً ولا درهماً.

قال الخليفة: ومن هو؟

قال عمر: عدو الله إبليس.

فغضب سليمان وقام من مجلسه.

وفي القرن الثاني قيل لسفيان الثوري ألا تدخل على الولاة تعظهم وتنههم؟ فأجاب: "تأمرني أن أسبح في بحر ولا تبتل قدماي. إني أخاف أن يرحبوا بي فأميل إليهم فيفيد عملي" وكتب لعابد من العباد: اعلم يا أخي أنك في زمان كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعوزون أن يكونوا فيه. ومعهم من العلم ما ليس معنا، ولهم من القدم ما ليس لنا، فكيف لنا حين أدركناه

على قلة العلم وقلة الصبر وقلة الأعوان على الخير وفساد الزمان. فعليك بالأمر الأول.. وإياك يا أخي.. يقال لك تشفع أو تدرأ عن مظلوم فإن ذلك من خديعة إبليس. وإنما اتخذ ذلك القراء سلمًا للقرب منهم واصطياد الدنيا بذلك..

يقول ذلك سفيان من نحو قرن مضى وفي عهد المهدي، وأبي جعفر، عهد العلم والوقار وأين منهما المتوكل (١٦٦).

* * *

مثل أحمد أهل السنة في موقفه من خلق القرآن فانتسبت إليه الأمة، بما فيها المعتزلة الذين تركوا نحلته، والجماهير التي أعلنت غضبها على هذه النحلة، وكثيرًا ما استقزتها مغاضبة المعتزلة (الجهمية). وإنها لأكثر غضبًا إذا صدمها الاستهتار بعقيدتها على أبواب مسجد.

(١٦٦) ويوضح سفيان الطريق للنصحاء فيقول (لا يأمر السلطان بالمعروف إلا رجل عالم بما يأمر وينهى. رفيق بما يأمر وينهى. عدل في ذلك) فالعالم يميز الحرام من الحلال ويقدر على توضيح جانب المصلحة قبل أن يأمر. والرفيق يسلك السبل الحسنة إلى الأنفس بالحكمة إذ يأمر. والعدل لا يميل في الأمر بل يقضي بما للسلطة للسلطة وما لله لله. وهو حلیم بعد الأمر إذ يتحمل التبعة. يقول تعالى عن لقمان (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور).

والقادر على التغيير يسبق الجميع في مطالبة الشرع له إذ يملك إعادة الجائزين إلى الجادة، وهو في الأسرة وليها، وفي القبيلة زعيمها، وفي الولاية واليهما. وفي الدولة ولي الأمر ونوابه. أي السلطة ذاتها. والسلطة وحدها هي المسؤولة عن تغيير المنكر بالقوة. لأنها تملك وحدها القوة ولا يشركها الأفراد في استعمالها، وإلا وسد الأمر إلى غير أهله فأوضعوا الفتنة في خلال الناس.

وفقه السنة لا يزيل المنكر بما هو أنكر منه.

ويروي أحمد في المسند لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا أحدهم وعلى يقول: (لا بد من إمارة برة أو فاجرة) قالوا يا أمير المؤمنين البرة عرفناها فما بال الفاجر؟ فأجاب (تقام بها الحدود وتأمين بها السبل ويجاهد بها العدو ويقسم بها الفيء).

ويروي: يوم من إمام عادل أفضل من عبادة سنتين سنة.

ولقد شجبت الجماعة الإسلامية دائمًا قيام الجماهير ومنها الحنابلة الحشويون بتغيير ما استكروه بأيديهم وتعرضهم لغيرهم في أشخاصهم.

ومن ذلك قيام الناس يوم الجمعة لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٢٢٧ والمعتزلة في أوجهم بالهجوم على رجلين من الجهمية (نفاة الصفات) وضربهما وإذلالهما ثم مضت الجماهير إلى مسجد شعبوية وهو اللقب الذي أطلقته الجماهير على شعيب بن سهل بن كثير (٢٤٦)، وكان يقول بقول جهم ويبغض أهل السنة ولا يقبل لهم صرفاً ولا عدلاً، ثم تمادى وكتب على مسجده عبارة (القرآن مخلوق) فهاجمته جموع من أهل السنة فأحرقوا بابه وانتهبوا منزله وحدثت معركة بينهم وبين حراسه الذين رموهم بالنشاب.

مثل أحمد أهل السنة في موقفه من خلق القرآن فانتسبت إليه الأمة، بما فيها المعتزلة الذين تركوا نحلته، والجماهير التي أعلنت غضبها على هذه النحلة، وكثيراً ما استنقزتها مغاضبة المعتزلة (الجهمية). وإنها لأكثر غضباً إذا صدمها الاستهتار بعقيدتها على أبواب مسجد.

ومن ذلك قيام الناس يوم الجمعة لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٢٢٧ والمعتزلة في أوجهم بالهجوم على رجلين من الجهمية (نفاة الصفات) وضربهما وإذلالهما ثم مضت الجماهير إلى مسجد شعبوية وهو اللقب الذي أطلقته الجماهير على شعيب بن سهل بن كثير (٢٤٦)، وكان يقول بقول جهم ويبغض أهل السنة ولا يقبل لهم صرفاً ولا عدلاً، ثم تمادى وكتب على مسجده عبارة (القرآن مخلوق) فهاجمته جموع من أهل السنة فأحرقوا بابه وانتهبوا منزله وحدثت معركة بينهم وبين حراسه الذين رموهم بالنشاب. وفي العام التالي عزل شعبوية.

وفي العهد ذاته كان الحنابلة يتعرضون لأصحاب البدع وتتدخل السلطة لكف عدوانهم لكن المتوكل لم يكن يقبل ضدهم شكاة على ما أسلفنا (١٦٧).

(١٦٧) وتجلى جموح الحشوية من العامة وخروجهم على النظام في مهاجمتهم لإمام عظيم من الأئمة هو محمد بن جرير الطبري إذ دخل بغداد في الأربعينات من القرن توافاً إلى أحمد وعاجلت المنية الإمام فلم يلقه، ولم يعرف فقهاء، فاستمر في طوافه يروح ويغدو على بغداد فقصد إليه جماهير من الحشوية فسألوه عن حديث الجلوس على العرش وعن عدم ذكره أحمد بن حنبل في كتابه اختلاف الفقهاء حيث ذكر اختلاف مالك والأوزاعي على العرش وعن عدم ذكره أحمد بن حنبل في كتابه اختلاف الفقهاء حيث ذكر اختلاف مالك والأوزاعي والشافعي وأبي حنيفة مع أبي يوسف ومحمد بن الحسن ثم أبي ثور، وذكر بعض فقهاء الصحابة والتابعين إلى أثناء المائة الثانية ولم يذكر أحمد. ويحكي أنه أجاب (إن أحمد لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً) وفي قول آخر أنه أجاب: (أن أحمد بن حنبل لا يعد خلافة) وأنهم قالوا: فقد ذكره في الاختلاف فقال: (ما رأيته روى عنه ولا رأيته له أصحاباً يعول عليهم - وأما حديث الجلوس على العرش فمحال) وأنشد:

سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس

فلما سمع الحشوية ذلك أخذتهم الحمية - وقد مر بنا أن أحمد ومذهبه حرب على التشبيه والتجسيد والحشو والعنف - فرموا الطبري بمحابرهم. وكانت آلافاً. ورموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كالتل وركب "نازوك" صاحب الشرطة في ألوف من الجند تحمي الطبري. ووقف على بابه يوماً.. وأمر برفع الحجارة فكتبت الجماهير على بابه شعراً يحوي معنى الجلوس على العرش.

واعتكف الطبري في داره وعمل كتابه المشهور في الاعتذار إليهم وكرر مذهبه واعتقاده كأئمة السنة وقرأ الكتاب عليهم. وفضل أحمد بن حنبل - وذكر مذهبه وصوب اعتقاده. ثم ذكر في تفسير الآية الكريمة رأي هذا البعض من الحنابلة. وأثر عليه رأي عدم الجلوس الفعلي. وأضاف أن القول بأن الله يقعد على عرشه محمداً ﷺ قول غير مدفوع من جهة الخبر والنظر. ولم يزل في ذلك إلى أن مات مخالفاً للمعتزلة فيها يخالفون فيه أهل السنة من القول بالقدر، أو القول بخلق القرآن أو إبطال رؤية الله يوم القيامة.. أو تخليد أهل الكبائر في النار.. أو إبطال شفاعة الرسول وما إلى ذلك من أقوالهم.

ومع ذلك منعت العامة دفنه إذ مات سنة ٣١٠ لتألب هذه الجماعة عليه فدفن ليلاً، وفي سر، في داره. وكما سلف القول لم تدع مدونات أصحاب أحمد إلا في القرن الرابع.

وقد لفتت إمامة أحمد للمحدثين أنظار المؤرخين فذكره ابن النديم في الفهرست في المحدثين وذكره المقدسي في أحسن التقاسيم. ولم يذكره البعض في اختلاف الفقهاء كالطحاوي الدبوسي والعلاء السمرقندي ولم يذكره ابن عبد البر في الانتقاء رابعاً للأئمة الثلاثة الفقهاء.

وفي نحو النصف الثاني من القرن الثالث حمل غلام خليل (٢٧٥) المحدث الحنبلي على الصوفية وشغب عليهم العامة واتهمهم بالزندقة وسعى عند والدة الخليفة حتى سجن نيف وسبعون منهم وهرب البعض وحكم البعض وراعت الخليفة شجاعتهم فبعث بهم إلى القاضي فراغته عبادتهم. فكتب إلى الخليفة: "إن كان هؤلاء زنادقة فليس في الأرض موحد".

وفي مطلع القرن الرابع شاع تجاوز الحشويين والجماهير معهم فكانت السلطة تعيدهم - بحق - إلى الجادة بقول ابن الأثير (في سنة ٣٢٣) "عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة وإن وجدوا نبيذاً أراقوه أو مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومشى الرجل مع النساء أو الصبيان فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو؟ فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة. فأرهبوا بغداد وركب صاحب الشرطة ونادى في بغداد "لا يجتمع من الحنابلة اثنان ولا يناظرون في مذهبهم ولا يصلى منهم إمام إلا جهر باسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين" فلم يقد فيهم. واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأتون المساجد وكانوا إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان.. حتى يكحاد يموت - وبنوا مسجداً في بغداد يجتمع فيه الشهابون. فخرج توقيع الخليفة الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويؤيخهم باعتقاد التشبيه وغيره ومما جاء في هذا التوقيع: (تارة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين. ثم طعنكم خيار الأمة. ثم استدعواكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة...)

وكان البريهاي (علي بن خلف أبو محمد) (٣٢٩) - شيخ الحنابلة في هذا العصر من علماء الأصول شديد الإنكار على أهل البدع. زاهدًا تنزه عن سبعين ألف آلت إليه من ميراث أبيه. وكانت بغداد في عهده كالمقفل لا تتسع إلا لنفوذ الحنابلة. واستمر لهم هذا النفوذ في بغداد وفي قصر الخلافة حتى ليأمر الخليفة بدفن البريهاي إلى جواره.

ولم يشفع لأبي الحسن الأشعري إعلانه الأخذ بعقيدة أحمد إذ لم تقبل الجماهير منه أن يضيف كلمة إلى ما قاله أحمد فترك المقام ببغداد.

الفصل الثاني

حكم الأمة

صوت الشعب وصت الله

مثل لاتيني

• بيت احمد

• صوت الشعب

حياة العظماء العادة أو الخاصة جماع سلوكهم اليومي، في حالات من العمل الإنساني الدارج... وهي بكثرتها وتنوع وجوهاها، مع الارتجال على البديهة، ووضوح الغريزة، من أدل أعمالهم عليهم. وأنفذها إلى الأفئدة.

يقول بوسوية: "ألا بعدًا لأولئك الأبطال الذين لا إنسانية فيهم. إنهم قد يثيرون إعجابنا ككل شيء خارق للطبيعة. لكن قلوبنا ليست معهم".

وغنما تتعلق الأنفس بالأئمة لأن وسيلتهم هي تبادل المحبة. ومن ثم سحر القدوة. والطريقة الجميلة وعاء بديع الصنع للأفكار النبيلة.. وحسن الأداء زيادة كبرى في الأداء. ومضاعفة للوفاء.

كان عليه الصلاة والسلام أحسن زوج وأحنى أب وأصدق صاحب.. حياته الشخصية هي المستوى البشري لأداء الرسالة.. قالت أم المؤمنين عائشة "كان خلقه القرآن".. وأحمد قد جهد جهده ليقارب بخلقه السنة.

بيت أحمد:

بلغ زواج أحمد الغاية لرجل يعمل بقول الرسول ﷺ: "أكمل المسلمين إيمانًا أحسنهم خلقًا" وقوله: "خيركم خيركم لنسائه - وأنا خيركم لنسائي" وكان النساء اللواتي تعاقبن على حياة أحمد جديرات به. زهدن زهده وصبرن صبره، وقنعن بدريهمات الطرز المؤجرة، وغزلت كل منهن بيدها لتستوفي النفقة. وكان يحمل غزلهن إلى من يبيعه ليهب هو حياته كلها لله. من ثلثمائة ركعة في اليوم، إلى الجلوس إلى التلاميذ، مع المخصمة والقناعة، عشرات الأعوام لا مجرد أيام أو شهور.

وبورك للشيخ في حياة الفقر الذي آثره. وأضاف إليه ثراء القيم العالية وتوازن النفس المطمئنة الخالصة لحياته العامة ومواقفه الشاقة. فكان طبيعيًا في كل موقف، وإن كان الموقف غير طبيعي.

والزواجع تواجه السطح ولا تزعزع الأعماق. ولا تنزل من كان الله معه.

أما زوجته العباسة بنت الفضل فأم ولده صالح. ولعل صالحًا كنى أبا الفضل من اسم أبيها. وقد سربت الإمام وابنها بما يجدر بهما من الرعاية، وجزى الإمام فضلها من فضله فعلهما، فأصبحت من الروايات عنه في حياته، ولما انتقلت إلى رحمة ربها عطر ذكرها بقوله: (أقامت معي "أم صالح" ثلاثين سنة ما اختلفت أنا وهي في كلمة).

ولم يطل به اللبث بعدها دون زواج. فبادر فبعث من يخطب بنت عم له - في قول - ورجعت الرسول... فسألها: أكانت أخت لها ذات فرد عين (عين واحدة) تسمع الكلام؟ قالت بلى.. قال "عودي فاخطبها" ولما بنى بريحانة - ذات العين الواحدة - قالت بعد أسبوع له: كيف رأيت يا ابن العم؟ لعلك أنكرت شيئاً؟ قال لا. إلا أن فعلك تصر.

لقد كان ينكر دلال العروس بنعل صرارة، إذا كانت عروس أحمد، ولو كان الصرير داخل داره!

ومن ريحانة ولد له عبد الله ويكنى أبا عبد الرحمن. وعاشت معه أم عبد الله - على الأرجح - أيام تعذيبه ومنعه من الجلوس للناس واختفائه. ولعلها في أعوامها الأخيرة شهدت تغير الحال في بداية عهد المتوكل. ولما وافاها الأجل^(١٦٨) بنى بجاريته حسن في اليوم التالي للوفاة. وكان قد تخطى السبعين. فهو قد دخل بحسن قبل عام أو نحوه من رحلته إلى المعسكر في سنة ٢٣٧.

ولعل "حسنًا" رزقت بسلام في كل عام، بل هي قد استفتحت فولدت توأمين ماتا عقب ولادتهما، ثم ولدت حسن الحسن ومحمدًا وزينب وسعيدًا - وتكنى زينب "بأم علي".

وكأنما أراد أحمد أن يوصي صالحًا بالصغار أو يعتذر له إذ وهبهم على الكبر. فقال له مشيرًا إلى حسن أو سعيد إذ جاءه يومًا: كل ما أخذ الله تعالى ميثاقه فلا بد أن يخرج إلى الدنيا.

* * *

ولعل من أظهر دروس الإمام في أسرته برهنته - كدأبه - بعمله الشخصي على احترام الحياة الزوجية. فلا يقدم على الزواج إلا أن يستطيعه مع الإنصاف، ولا يجمع بين زوجتين. بل

كانت له دائماً زوجة واحدة، وبرهنته وأهله على النجاح الكريم للحياة الزوجية، يتراءى في وثيقة العلاقة بين الشيخ وأزواجه، وزهدهن كزهدة في حين لم يستطع ولده صبرصا معه.

ولقد يلاحظ أن ليس في داره أو أخباره أمهات لهؤلاء الزوجات. وأنهن كن أبكاراً إذ يبني بهن.. فلقد كان هذا منهجاً له لا صدفة.. يسأله تلميذ عن التزويج فيقول له: "تزوج ببكر - واحرص على ألا يكون لها أم". يقول أحمد ذلك وهو الذي كان ينظر إلى عمل النبي في كل شأن خاص ليقتردي به. ولم يكن أكثر زوجاته اللاتي بنى بهن عليه الصلاة والسلام أبكاراً. والحرص على البعد عن الحماة تضيق. فلعلها تجارب الشيخ الشخصية الناجحة لم يضمن بها على السائل.

ولا تظهر الحماة لزوجات أحمد في صفحات حياتهن، ذلك أن أم أحمد تظهر في عهد الطب وحده. وعهد الطلب وعهد العزوبة عنده مقترنان. لكن ذكريات أمه ظلت تهيمن على نفسه وترفرف في أجواء داره حتى آخر حياته.

وفد على الدار ابن أخت لها من مرور الشاهجان بخراسان يدعى أبا أحمد. فعلا الدار البهاء. وتجلت في هشاشة الإمام وبشاشته كرامة قراباته على نفسه. وما هو إلا إكرام العروة التي تجمع بينهما. دعاة الإمام إلى دار ولده صالح - حيث يرتاح زائر غير زاهد - فأولم له. واجتمع اثنان أحدهما قادم من المشرق البعيد يحده شوق قطع لأجله آلاف الفراسخ وثانيهما مقبل من قمة المجد الديني والإنساني معاً. يتلاقيان على ذكريات إنسانية مؤنسة من الأمهات أو الخالات أو الرحلات أو بني شيبان أو خراسان أو كلها مجتمعة. ويجلسان إلى طعامهما مجلساً خاصاً بهما. فالخصوصية في هذا المقام غاية في الإكرام وآية في الأناقة.

أما أطباق المائدة والذوق في تقديمها فحدثنا عنها زهير بن صالح قال: ... فجاءت الجارية بطبق عليه خبز وخل وملح. ثم جاءت بغضارة فوضعتها بين أيدينا فيها مصلية، فيها لحم وسلق كثير. فجعلنا نأكل وهو يأكل معنا، ويسأل أبا أحمد عن بقى من أهلهم بخراسان في خلال ما يأكل. فربما استعجم الشيء على أبي أحمد فيكلمه جدي بالفارسية. ويقطع اللحم بين يديه ويدي. ثم رفع الغضارة بيده فوضعها ناحية. ثم أخذ طبقاً إلى جنبه بين يديه. فإذا تمر برى وجوز مكسر. فجعل يأكل وفي خلال ذلك يناول أبا أحمد. ثم غسلنا أيدينا كل واحد منا يغسل يده لنفسه.

فالإمام يقدم لزائره طبقاً بعد طبق. ويولم بشاة مصلية (مشوية) فذلك دأب العرب بل الأعراق في البادية. والإمام يعلم الناس بصنيعه الذوق الأنيق والاعتدال الكريم والسخاء المؤنس

بما يتيسر. والذوق في ألوان طعامه التي سردناها عصري أبدًا - في الشرق والغرب على موائد العامة إذا أولموا، وأخونه الأثرياء إذا طعموا، ما لم يتكلفوا بهرجًا أو تعاضًا.

ومن الإمتاع والمؤانسة أن يقدم بيده لزياره ولحفيدته.

ومن التواضع الأنيق أن يغسل كل واحد يده بنفسه وإن كان ثمة جد وحفيدة أو كان بينهما زائر.

ومن الذوق الدقيق تحديث زائره بلغته وطلب الأنباء عن أهله ووطنه.

* * *

ومن التلاميذ من كانت الدار مألّفًا له - يحظيه الإمام بعناية خاصة. كان أبعد التلاميذ رحلة إليه بقى بن مخلد إذ أقبل من الأندلس يلتمس حديثه، فإذا هو ممنوع من الاجتماع بالناس في أيام الواثق. فاحتال بقى فصار يخالس السلطة إلى لقاءات معه. فيحدثه الإمام بالحديث والحديثين حتى هلك الواثق وولى المتوكل، فكان أحمد يعرف لبقى صبره ويقص خبره على الآخرين.

وفي ذات يوم اعتلى الأندلسي البعيد الدار عن وطنه، فعاده أحمد في فندقه.. وإذا الفندق قد ارتج بأهله فصاروا يقولون: "هو ذاك... أبصروه.. هذا إمام المسلمين". ويضيف بقى "فبدر إلى صاحب الفندق مسرعاً.. ودخل أحمد وجلس عند رأسي، وقد احتشى البيت من أصحابه فلم يسعهم، حتى صارت فرقة منهم في الدار، وهم وقوف وأقلامهم في أيديهم فما زاد على هذه الكلمات "يا أبا عبد الرحمن أبشر بثواب الله. أيام الصحة لا سقم فيها. وأيام السقم لا صحة فيها. أعلاك الله إلى العافية ومسح عنك بيمينه الشافية..." فرأيت الأقلام تكتب ألفاظه ثم خرج فأتاني أهل الفندق يلطفون بي ويخدمونني ديانة وحسبة.. فواحد يأتي بفراش وآخر بلحاف. وبلطائف من الأغذية.. وكانوا في تمريضي أكثر من تمريض أهلي لي لو كنت بين أظهرهم لعبادة الرجل الصالح لي".

* * *

جلس أحمد سنواته الأخيرة بداره يسمع منه ابنه صالح وعبد الله، وحنبل ابن عمه وعمه، والبعض من الخاصة أو الجيران كابن منيع - الحفيد - إذ تشفع له جده ليسمع جزءاً من المسند. فحمل صالح فقه أحمد. وحمل عبد الله المسند وصار روايته الأساسي. وبهذا حفظ التاريخ اسمي صالح وعبد الله بين العلماء الفحول.

كان صالح موفور السخاء.. اقتصد مدة ودعا إخوانه يومًا. وأنفق في الوليمة نحوًا من عشرين دينارًا.. وإذا أبوه يدق الباب. قال صحبه: أسبل علينا الستر لا نفتضح ولا يشم أبو عبد الله رائحة الطيب ففعل. ودخل أبوه فقعد في الدار وسأله عن حاله وأعطاه دراهم قائلًا: "خذ هذه الدراهم فأنفقها اليوم". وقام فخرج. فسألوا صالحًا: لم أردت أن تأخذ الدراهم منه؟..

وإنما أخذ صالح الدراهم لأن أباه أعطاه إياها من أجل هذه الوليمة - فلم يكن إسبال الستر كافيًا ليمتع شيم الأضياف - وإنفاق هذه الدراهم في الوليمة يصلحها لهم. ولعل الإمام أراد أن يشركه الاحتفال بضيفه، أو يعلمه أن الإسراف لا يحمل به. وأن الدراهم تكفي عنخ الدنانير للولائم، إذا كانت ولائم الفقهاء. أو لعله خير الجهد: جهد المقل.

عين صالح قاضيًا لأصفهان بعد موت أبيه فدخل مسجدها الجامع وصلى ركعتين. واجتمع الناس وقرئ العهد الذي كتبه له الخليفة. فاستهل يبكي فلا يرقأ له دمع. واخضلت لحيته ولحى الشيوخ الذين قربوا منه. فلما فرغ من قراءة العهد جعل الشيوخ يقولون: "ما ببلدنا أحد إلا ويحب أبا عبد الله - أباه - ويميل إليك". يحسبون أنه يخشى الوحشة منهم. فقال: "أتدرون ما أبكاني؟.. ذكرت أبي أن يراني في مثل هذه الحال - وكان عليه السواد رداء الوظيفة - وكان

أبي يبعث خلفي إذا جاءه رجل زاهد أو متقشف لأنظر إليه. يجب أن يراني مثله. ولكن الله يعلم ما دخلت في هذا الأمر إلا لدين قد غلبني وكثرة عيال أحمد".

ولقد قام صالح في إخوته حتى وفاته سنة ٢٦٥ مقام أبيه حقًا.

خلف صالحًا ولده زهير (٣٠٣) فصار من المحدثين عن أبيه: يقول الدار قطني: زهير ثقة. وحسب زهير أن يشهد له الدار قطني. ولزهير أخ هو أحمد بن صالح. ولأحمد هذا ابن هو محمد بن أحمد (٣٣٠) يروي عن عمه زهير.

فهذه قرون أربعة في الإسلام تملؤها أسماء الفقهاء العظماء في دين الله من بني شيبان.

أما عبد الله بن أحمد بن حنبل فقد درس على أبيه ثم على كثيرين غير أبيه. قالوا إنه درس على أربعمائة شيخ. وحسبه من تراث العظمة خلوده المسند الأعظم.

يقول فيه أبوه: "ابني عبد الله محظوظ من علم الحديث - أو من حفظ الحديث - لا يكاد يذاكرني إلا بما لا أحفظ". وقد روى عنه أبوه! وله كتاب السنة وكتاب الجمل والواقعة وكتاب سؤالاته أباه.

سأله إذ أدركته الوفاة أين يدفن؟ فأجاب: صح عندي أن بالقطيعة نبياً مدفوناً ولأن أكون في جوار نبي أحب إلى من أكون في جوار أبي..

قيل توفي سنة ٢٩٠ عن سبعة وسبعين عاماً. وصلى عليه زهير.

وأما سعيد - وقيل إنه ولد قبل موت أبيه بنحو خمسين يوماً - فعاش في كنف إخوته وقيل ولي القضاء بالكوفة ومات قبل سنة ٢٩٠.

ولم يهمل أحمد زينب - أم علي - فلقد رآه اسحق بن إبراهيم يضربها على اللحن.. وقد كبرت وتزوجت.

* * *

عبر الغمام عتبات الخامسة والسبعين من سنوات الحياة - في خلافة المتوكل - وكأنما كانت كل سنة جديدة يفتتحها، عقبة يقتحمها، في مضاضة الذي يسمه الضر من فساد الزمان. ويدهره الجزع عن أهل الإسلام. وكأنما كان الغد كتابًا مفتوحًا بين يديه يقرأ صفحاته ويسمع صيحاته. وأمسى تستبد به وحشة العزلة التي صيره إليها تعاقب الأجيال. برودة القمة العالية التي تقرد فيها. فصار كالمغترب. هزل الزهد بدنه. وأدق الحذب على المسلمين حسه. وهو يرجع القريض وكأنما يسجع اللحن الحزين:

إذا ما مضى القرن الذي أنت فيهمو وخلفت في قرن فأنت غريب

وتمضي الأيام وسني والشيخ في حالة انتباه كامل بذكر الله وإبهاماه تضربان عليه من أثر التعذيب.. يسخن له الماء، ويعمل أهله مرهفًا له بمنزل عمه إسحق مخافة أن يدس إليه السم ابن أبي دؤاد. والأوجاع تلازمه من أثر الضرب وإذا عرى ظهره للشمس بان أثره على ظهره.

والأمة تحس إذ هو على وجه الأرض كأنه موضع القسطاس منها يمنع جانبيها أن يميلا:

وفي ذلك العهد كان يقول لصالح: "والله لقد أعطيت المجهود من نفسي ولوددت أني نجوت من هذا الأمر كفافًا لا لي ولا علي".

وهذه الكلمات إن دلت على القناعة وإنكار الذات فهي أدل على شجاعة الصابر الشاكر. وهي أعلى درجات الشجاعة. لأنها ليست شجاعة ساعة، بل هي شجاعة كل ساعة. وليست جسارة بدنية تستطاع بالاندفاع، أو بالجلد الموقوت. وإنما هي تقدير فكري وعلمي مستمر - ومعاناة للضغط الذي يعدل ثقله أوزان الفساد في العالم. ولا يوازنه إلا الرجاء في فضل السماء، والرضا بالقضاء بعد وقوعه، والتوكل على الله وشكره في كل حال.

وتمضي الأيام... والإمام في هم ناصب من أجل المسلمين.

وحسن في شغل به. تجهد جهدها لتدخل على قلبه البهجة. وكانت كسابقتها صناعاً
تغزل له ثياباً حسنة. وهو يأبى لبسها ويدفعها إلى فوران يبيعها..

وذات يوم استبقى ثوباً كبيراً. قال: لا تتبعه. فقطعت الغليظ منه واستبقت الباقي له..
فأبقاه.. يريد ليهيئ لنفسه كفته.

* * *

حل أول أيام السنة الثامنة والسبعين من حياة الإمام فأعلن لبنيه أنه دخلها، وحم من
ليلته، فألم به المرض في الأيام الأولى من ربيع الأول سنة ٢٤١. وانكب عليه أهله يوصبونه.

أحمد بن حنبل

ووصف له الطبيب قرعة تشوى ويسقى ماءها. فلم ينس المريض أن ولديه ما تزال تجري
عليهما جراحة المتوكل. وأن الله تبارك وتعالى قدم الأكل الطيب على العمل الصالح نفسه حيث
قال: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فخاف القرعة تشوى في دار ولديه فلا يكون ماؤها
طيباً. ونادى صالحاً فقال له: لا تشو في منزلك ولا منزل أخيك عبد الله.

وخفت حاشية الخليفة إلى بغداد تَعُودُهُ.. فحجبهم صالح عن الدخول عليه. وتقاطر
الناس وتحشدوا. فأخبر أباه. فسأله: فأى شيء ترى؟ وأجاب صالح تأذن لهم - يدعون لك
وينصرفون. فجعلوا يدخلون أفواجا يدعون له ويسألونه الدعاء لهم.

وكانت ساعة الدهر تدور فسارع يؤدي ديونه في الدنيا.. كفارة يمين. فقال يوم الثلاثاء
لصالح: انظر في خريقتي شيء؟.. قال درهم.. قال وجه فاقتض بعض السكان - مستأجري
طرزه - فوجه فاقتضى منهم شيئاً. فقال له: وجه فاشتر تمرًا وكفر عني كفارة يمين. وبقي ثلاثة
دراهم أو نحوها فحمد الله. ثم قال: اقرأ على الوصية فقرأها عليه. وكانت قد كتبت في العسكر
من سنوات أربع، أيام كان يستعجل الموت مكروئاً بجوار المتوكل. ومنها يتبين الرصيد الدائن
والرصيد المدين لسبعة وسبعين عاماً عاشها إمام المسلمين. قال:

"بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل. أوصى أنه يشهد أنه لا إله
إلا الله وحده لا شريك له. وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى والحق ليظهره على الدين كله.
وأوصى أن لعبد الله بن محمد المعروف بفوران نحوًا من خمسين دينارًا. وهو المصدق فيما قال.

فيقضي ماله من غلة الدار. إن شاء الله. فإذا استوفى أعطى ولد صالح كل ذكر وأثنى عشرة دراهم. بعد وفاة مال أبي عبد الله".

كان سداد دينه همه، كهيئة الفاروق حين حضره الموت، فدعا ابنه عبد الله بن عمر فقال له: اضمن ديني فضمنه لأن تركه أمير المؤمنين كانت تحتاج لضامن.

وأول ما تنطق به الوصية أن مال إمام المسلمين لم يزد درهماً في سنوات سبعة وسبعين قضاها على قيد الحياة..! وأن الميراث الذي خلفه له أبوه هو الذي يخلفه لصغاره بديون تعدل إيراده كله خمس سنين. وإن دريهمات لم تكن تكفيه الكفاف حتى لم يتمكن في السنوات الأربعة الأخيرة من سداد الدين كله أو بعضه.

وأنه يضع فوران وفضله أمام الدنيا. فلقد طالما يسر شئون الحياة العادية له في أوقاتها الحرجة (١٦٩).

ولا يظهر أبناء عبد الله في الوصية فلعله لم يكن قد أنجب. أو لم تكن سنه تأذن له عندئذ بأن يتزوج. وهو إذ تزوج أصهر إلى قوم مياسير.

(١٦٩) دخل فوران أبو محمد (٢٥٩) التاريخ بوصية أحمد ليظل دليلاً على أنه (لا يذهب العرف بين الله والناس) فهو قد لزم أحمد منذ القرن الثاني للهجرة كرجل المهام الخطيرة في الحياة المنزلية الصغيرة - التي قد تطيش من جراء متاعبها أحلام العلماء.

كان يسهر عليه وهو مريض. ويقرضه إذ يحتاج إلى قروض. ويظهر في جواره وفي خدمة داره إذ يبيع غزل الزوجات، وكلما ظهر في أفق بني شيبان نجم جديد. فيمضي إليه الإمام في السحر فيقعد على بابه ولا يدق الإمام الباب حتى لا يوقظته في غير ميعاده. حتى إذا خرج فوران للصلاة قام الإمام فقال جاءنا مولود. ثم يمضي لصلاته. ويصلي فوران. ثم يخرج إلى السوق فيشتري ما يصلح للنساء ويبيعه على الدار.

فليست الخدمات مقصورة على الولادات، فأحمد قد تزوج في مطالع القرن الثالث للهجرة. وفوران يخدمه من قبل ذلك. روى فوران أن أحمد مرض قبل المأبئين وعاده علي بن الجعد. فجعل على رأسه صرة وقام. فلما أعلمه بها فوران قال أحمد: كما رأيته فاذهب فردها إليه فذهب فردها.

والصلوات مستمرة بين أحمد وتلميذه - روى عبد الله بن أحمد أن رجلاً وضع بين يدي ابنه خواناً عليه منديل أبيض وهو مبادراً فلما وضعها قدام أبيه سأله أبوه أي شيء هذا؟ أمن منزل أبي محمد؟ يعني فوران. قال: لا - رجل وضعه مر. فسكت ساعة ثم قال: ابعت إلى منزل عمك وصبيان صالح - ثم أوماً إلى أهله وصبيانهم وأضاف وخذ أنت.

ولا تظهر أسماء سائر الأبناء فقد رزق بهم في السنوات الأخيرة.

ومن ناحية أخرى فالإمام يسوي في العطاء بين الحفدة بنين وبنات.

وما هو إلا الحنان والرحمة يتجليان مرة أخرى في وصية إمام المسلمين بالمرأة، في ساعات الأخيرة. ولقد كان آخر ما وصى به النبي عليه السلام ثلاثاً كان يتكلم بهن حتى لجّج لسانه وخفى كلامه قال: "الصلاة - الصلاة - وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون. الله الله في النساء فهن عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله".

وكان أحمد يقول لصالح إذا ولدت لصالح بنت: "الأنبياء أولاد بنات" ويقول له: "قد جاء في البنات ما قد علمت" أيًا كان الأمر في الوصية فالدراهم العشرة الموصى بها في العسكر لكل حفيد لم تكن إلا رمزاً لمعان تذكّره بها وهو يرفض عشرات الآلاف. ويتمنى أن يموت مخلقاً لهم هذه الذكريات وحدها.

* * *

صوت الشعب:

تقاطر المسلمون على البيت بالليل والنهار فلقد كان حدث الأحداث في تاريخ دار السلام ووكّل السلطان الشرطة بباب الدار وباب الزقاق، وسد الناس الشوارع. وتعطل الباعة عن البيع والشراء. فكان البعض يتسلقون الدور وطرز الحاكّة المجاورة ليدخلوا دار الشيخ يلقون إليه بالمودّة. وتواتر أصحاب أخبار الخليفة وأصحاب أخبار محمد بن عبد الله بن طاهر، نائب الخليفة ببغداد. يسألون عن أنباء الإمام. وعمن يعالجه. وجرت البرد بأنبائه بين بغداد وبين الخليفة بالعسكر.

وجاء بنو هاشم فجعلوا يبيكون.. فأذن لبني هاشم فدخلوا.

وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يأذن لهم صالح.

(١٧٠) كانت سامرا مقر الخلافة. ولم يمض ببغداد خليفة منذ أنشئت سنة ١٤٥. فالمنصور مات بالحجاز والمهدي بماسبذان والهادي بقرقيسيا والرشد بطوس والأمين خارج بغداد والمأمون بالبدندون والمعتصم في سامرا حيث استقر الخلفاء وتبعهم ذرية المعتصم حتى عاد مقر الخلافة في القرن الرابع إلى بغداد.

وجعل الداخلون يتخافتون الكلام بينهم.. والبعض يدعون له بقولهم: أعطاك الله ما تريد لأهل الإسلام. فكان يجيب. استجاب الله لك.. فإذا خصه داع بالدعاء رد عليه قائلاً: ولجميع المسلمين.

وإذا دخل عليه رجل ممن كان في قلبه شيء منه، أغمض عينيه، كالمعرض، ولم يسلم عليه إذا سلم.

ولما أذنوه بقدوم تلميذه - وخليفته في الحلقة - عبد الوهاب الوراق قال: عز علي بمجيئه في الحر. ولما دخل عليه أخذ بيده. فلم تزل في يده حتى قام.

وجهد جهده ليقول بلسان ثقيل يوم الأربعاء أو يوم الخميس "ادعوا الصغار" فجعلوا ينضمون إليه.

وجعل يشمهم. ويمسح بيده على رؤوسهم. وعينه تدمع ويقول ما كنت أصنع بالولد على كبر السن؟ قيل له: ذرية تكون بعدك يدعون لك. قال: "ذاك إن حصل".

وجعل يدعو الله تعالى.

* * *

وبرحت الأوجاع به. فطلب إلى عبد الله أن يخرج كتاب عبد الله بن إدريس ليخرج منه أحاديث ليث بن إدريس فقرأ حديث: "ابن إدريس عن ليث عن طاوس أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يكره الأتئين في المرض".

فما سمع لأحمد أنين حتى مات.

ولم تعد الصلاة ثلثمائة ركعة أو مائة وخمسين في اليوم بل أصبحت محاولة لنفس مطمئنة تهيب صاحبها للجنة. لا يكاد يفتر عن الصلاة وهو قاعد أو مضطجع. ويرفع يده في إيماء الركوع

وجاء خادم لعمه إسحق بن حنبل يروحه من الحر. فأشار إليه بيده ألا يفعل. إذ كان عمه قد اشتراه بأموال الخليفة.

وازداد البرح شدة يوم الخميس، وطلب الوضوء، فوضأه أبو بكر المروزي فقال وهو يوضئه: خلل الأصابع.

هكذا لا يفوته الكمال في حق نفسه وهو في آخر لحظات حياته. ولا يفوته في حق المسلمين أن ينهم على عدم التساهل في العبادة أو الطهارة. وكأنما يحصل لنا في اللحظات الأخيرة منهاجه كله: العمل قبل القول والحرص على الكمال.

ولما كانت ليلة الجمعة ثقل. فأوصى بالشعرات الثلاث من شعرات النبي، اللواتي لا يفارقه، أن توضع على كل عين شعرة وعلى لسانه شعرة.

ثم أسفر الصبح يوم الجمعة ١٢ من ربيع الأول. ومضى من النهار ساعتان.. وقبض الإمام.

* * *

كان الشيعة في بغداد خصومًا شدادًا لأشهر الأئمة بالإمامة في السنة.. لكن مائة من بني هاشم حضروا غسله. وكانوا يقبلون جبهته عند رفعه على سريره. ويأتون بأولادهم يقبلونه وهو مسجى في أكفانه.

وسأل الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر: من يصلي على الإمام؟ قال صالح: أنا... فلما خرجوا به بادرهم الأمير فصلى عليه، هو! فكان الخليفة المتوكل يغبطه.. ويقول له: طوبى لك صليت على أحمد.

ومشى في جنازة أحمد ألف ألف نفس. وقيل ألف ألف وتلثمائة ألف. وفيمن مشى ستون ألفًا من النساء يشيعن إمام الرحمة، ومنهن العارفات بره بالمرأة. فهن يشيعنه ذاكرات شاكرات في أول يوم من أيام آخرته.

أما أهل العلم فقال قائلهم بعد أن دفن أحمد: "دفن اليوم سادس خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وأحمد".

أما علي بن المديني فيعتبره ثاني اثنين أولهما أبو بكر.. يقول: "إن الله أعز الدين برجلين ليس لهما ثالث أبو بكر يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة".

والمزني يقفه مواقف الخلفاء الراشدين الأربعة في أعظم مواقف الإسلام بعد موت الرسول فيقول (أحمد بن حنبل هو أبو بكر يوم الردة وعمر يوم السقيفة وعثمان يوم الدار وعلي يوم صفين).

وأما الجماهير فقد جذب أبصارها إلى أعلى، هذا الشهاب الذي اختفى، تاركًا أضواءه في الأفق. تعلمها أن رحيل العظيم عن الدنيا يكلل ظهوره الذي بلور الفضائل الإنسانية بين يديها. وأحال الآمال والخطرات إلى نظريات. وجعل الأقوال أعمالاً شامخة كالجبال.. وبهذا كان تاريخ العالم مجمع تواريخ عظمائه.

* * *

استقبل أبو خنيفة حياة الخلود يوم مات في سجن أبي جعفر. وازداد مالك علوًا في ضمير الزمان يوم عذبه جعفر بن سليمان وإلى أبي جعفر. وبدأ الشافعي الصعود من محنته بين يدي الرشيد.. لكن الإمام الرابع كان حظه من الامتحان كحظ السابقين مجتمعين.

محناً أربعة على أيدي خلفاء أربعة، في مدى بضع عشرة، في أبواب شتى للعذاب، كانت بأسباب وقوعها وتتابعها ومشاركة الأمة فيها، وبجلال صبره وشكره، أسرع في نباهة الشأن وأبقى في ضمير الزمن.

يقول كارليل - من أكثر من مائة عام - "لو خيرت إنجلترا بين الهند وبين شكسبير، لاختارت على رغم الساسة - شكسبير. فالهند، جوهرة التاج، قد تذهب، أما شكسبير فباق أبدًا".

وأيّن شكسبير وأترابه في مجد الفكر وخلوده من منازل الأئمة! وإنما يقال في هؤلاء: إن من الرجال من كان أجدى على الإنسانية من إحدى القارات الخمس.

مشت الجماهير مهما ناءت بها أحمالها فلم تستطع الارتفاع إلى مستوى الدقائق العلمية، لا تخذلها غريزتها في إدراك مصلحتها. فهي تهول إليها حينًا، وتثقل دونها أحيانًا لكنها تتجه تلقاءها على الدوام.

ولما عبر اللاتين من أكثر من عشرين قرنًا بأن "صوت الشعب صوت الله" كانوا ينطقون عن حكمة القرون. فضمير الجماهير يقين الجماعة. ويد الله مع الجماعة.

ولما تلاقى عند أبواب عالم الخلد أعظم جمع في تاريخ الأمة يجتمع في حرب أو سلم أو نصر أو هزيمة كان يسترجع ذكريات قرنين ونصف قرن، هي أعظم زمان عرفه أو سيعرفه الزمان.

فيه عصر محمد بن عبد الله نفسه ﷺ. وثلاثون عامًا أو نحوها من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وثلاثون شهرًا أو نحوها من خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز.

وفيه قرن كامل ترتفع فيه أعلامهم عالية على أيدي أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ابن حنبل. رضي الله عنهم أجمعين.

فهرست المراجع

- ١- مناقب الإمام أحمد: ابن الجوزي
- ٢- تاريخ الإسلام: الحافظ الذهبي
- ٣- المسند: شرح أحمد محمد شاكر.
- ترجمة الإمام أحمد
- ٤- طبقات الحنابلة: القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلى.
- ٥- اختصار طبقات الحنابلة: المقدسي.
- ٦- أحمد بن حنبل حياته وآراءه: الشيخ محمد أبو زهرة.
- ٧- محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية: الشيخ محمد أبو زهرة.
- ٨- أحمد بن حنبل بين محنة الدين والدنيا: أحمد عبد الجواد الدومي.
- ٩- ابن حنبل: محمد رجب البيومي
- ١٠- الإمام الممتحن: محمد البهي الخولي
- ١١- الأئمة الأربعة: دكتور أحمد الشرباصي
- ١٢- المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل: ابن بدران الدمشقي.
- ١٣- دليل الطالب لنيل المطالب على مذهب الإمام أحمد: مرعي بن يوسف المقدسي.
- ١٤- قوت القلوب: أبو طالب المكي (محمد بن علي بن عطية الحارثي)
- ١٥- أحمد بن حنبل والمحنة وولتر ملفل باتون ترجمة عبد العزيز عبد الحق.
- ١٦- تاريخ التشريع الإسلامي: محمد الخضري
- ١٧- تاريخ التشريع الإسلامي: الأساتذة السبكي - السائيس - والبربري.
- ١٨- السنة ومكانتها في التشريع: مصطفى السباعي
- ١٩- التقريب: محيي الدين النووي.
- ٢٠- علم مصطلح الحديث: محمد عبد الرحمن قراعة
- ٢١- الجرح والتعديل: جمال الدين القاسمي الدمشقي

- ٢٢- التوحيد ا لذي هو حق المولى على العبيد : محمد بن عبد الوهاب.
- ٢٣- الفقه على المذاهب الأربعة: طبعة وزارة الأوقاف.
- ٢٤- أصول الفقه: محمد الخضري
- ٢٥- آداب الشافعي ومناقبه - محمد بن أبي حاتم الرازي.
- ٢٦- المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي: الشيخ محمد مصطفى شلبي.
- ٢٧- تعليل الأحكام: الشيخ محمد مصطفى شلبي.
- ٢٨- محاضرات في أصول الفقه: الشيخ محمد زكريا البرديسي.
- ٢٩- محاضرات في تاريخ الفقه الإسلامي: الشيخ أحمد فرج السنهوري
- ٣٠- المصلحة (مخطوط في مكتبة كلية القانون والشرعية): دكتور حسين حامد
- ٣١- الموافقات: الشاطبي
- ٣٢- أعلام الموقعين: ابن الجوزية
- ٣٣- زاد المعاد : ابن قيم الجوزية
- ٣٤- القصور العوالي من رسائل الغزالي:
- ٣٥- ابن تيمية: دكتور محمد يوسف موسى
- ٣٦- السياسة الشرعية: ابن تيمية
- ٣٧- السياسة الشرعية: ابن تيمية
- ٣٨- كتاب العقود (مطبوع بعنوان نظرية العقد) عن ابن تيمية
- ٣٩- المسودة في أصول الفقه: آل تيمية
- ٤٠- نظام النفقات في الشريعة الإسلامية: أحمد إبراهيم
- ٤١- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: دكتور علي سامي النشار.
- ٤٢- أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع: دكتور عبد الحكيم بليغ.
- ٤٣- بصائر ذوي الألباب: الفيروز أبادي
- ٤٤- طبقات الصوفية : دكتور أحمد الشرباصي.
- ٤٥- الطبقات الكبرى: الشعراني.

٤٦- سير أعلام النبلاء: الحافظ الذهبي

٤٧- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي.

٤٨- الكامل: ابن الأثير.

٤٩- البداية والنهاية: ابن كثير

٥٠- النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي

٥١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: العماد الحنبلي

٥٢- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ابن الطقطقي.

٥٣- معجم الأدباء: ياقوت.

٥٤- فجر الإسلام: أحمد أمين.

٥٥- فجر الإسلام: أحمد أمين

٥٦- ضحى الإسلام: أحمد أمين

٥٧- ظهور الإسلام: أحمد أمين

٥٨- هرون الرشيد: أحمد أمين

٥٩- زعماء الإصلاح: أحمد أمين

٦٠- المغني الجزء الأول: ابن قدامة المقدسي

٦١- الدولة الإسلامية: عبد الحميد العبادي - مصطفى زيادة

٦٢- حضارة الإسلام في عز العرب: محمد كرد علي.

٦٣- مختار الأغاني: ابن منظور - طبعة جامعة الدول العربية.

٦٤- دائرة المعارف البريطانية (مادتي فقه - ابن حنبل):

Encyclopoedia Britannica

٦٥- تاريخ تأخر وسقوط الإمبراطورية الرومانية (جبون):

History of the Decline and Fall of the Roman Empire Gibbon.

٦٦- التاريخ العام:

General History P. V. N. M. Collidge Hall Ohio - 1906

٦٧- تاريخ أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية (جيزو):

Histoire de l'Europe, depuis la Chute de l'Empire Romain M. Guizot.

٦٨- خلاصة تاريخ الأمة القبطية: لجنة التاريخ القبطي طبعة سنة ١٩٣٢.

٦٩- عصر المأمون: دكتور أحمد فريد رفاعي.

٧٠- المأمون: دكتور محمد مصطفى هدارة.

٧١- ابن قتيبة: دكتور عبد المجيد سند الجندي.

٧٢- الجاحظ: دكتور أحمد كمال زكي.

٧٣- الطبري: دكتور أحمد الحوفي.

فهرست الأحاديث

- (من ازداد علماً ولم يزد هدى ازداد من الله بعداً) ٩٣
 (من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار) ٩٤
 (إيتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده) ١٨٧
 (إذا لم تستح فاصنع ما شئت) ١١٧
 (الحياء لا يأتي إلا بخير) ١١٧
 (إن من كلام النبوة الأولى . . . الحديث) ١١٧
 (إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة . . . الحديث) ١٠١
 (إن أحبكم إلى وأقربكم مني من لقيني على مثل الحال التي فارقتكم عليها) ١٣٣
 (من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب ذلة يوم القيامة) ١١٥
 (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر . . . الحديث) ٩٧
 (يا معشر قريش اشربوا أنفسكم من الله . . .) ٣٣٨
 (من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنها حيزت له الدنيا بما فيها) ١٣١
 (إن الله جميل يحب الجمال . . . الحديث) ٩٧
 (يا عائشة : إخواني أولو العزم من الرسل صبروا على أشد من هذا . . . الحديث) ١٣١
 (إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج) ٢٦٨
 (سئل عن الإيمان فقال : الصبر والبساحة) ١٥٢
 (من تطلب ولم يعرف منه طب فهو ضامن) ٢٨٥
 (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . . . الحديث) ١٠٦
 (حسبك من الخدم . . . الحديث) ١٣٣
 (عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً) ٦٦
 (ما أنتم بأقوى على المشي مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكما) ١٤٤
 (الحلال بين والحرام بين . . . الحديث) ٢٠١
 (شعار المسلم على الصراط رب سلم . سلم) ١٤٧
 (يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة . . . الحديث) ٣٢
 (روحوا القلب ساعة بعد ساعة . . . الحديث) ١١٠
 ٤٧٥

- (لا ضرر ولا ضرار) ٢٨٩
- (من حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه) ٢٠١
- (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) ٢٨٣
- (من كذب على متعمداً . . . » الحديث) ١٨٦
- (إنما الأعمال بالنيات . . . » الحديث) ٢٠١ - ٢٧٤
- (إن هذا لأول يوم انتصف فيه العرب من العجم . وبى نصرؤا) ٣٠
- (الحمد لله الذى جعله عذباً قرأتاً برحمته . . . » الحديث) ١٣٢
- (الذى الله تعالى فقيراً ولا تلقه غنياً) ١٥٠
- (لا طلاق ولا عتاق فى إغلاق) ٢٧٤
- (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه) ٢٠١
- (العارية مؤداة) ٥٢
- (ليس لمجنون ولا لسكران طلاق) ٢٧٣
- (خير الناس مؤمن فقير يعطى جهده) ١٥٦
- (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) ١٢٠
- (هلك المنتطعون) ١٢٠
- (ما نقصت صدقة من مال) ١٣٣
- (نعم الإدام الخلل) ١٣١
- (أفضل الناس مؤمن مزهد) ١١
- (أياكم مال وارثه أحب إليه . . . » الحديث) ١٣٣
- (قليل الدنيا يلهى عن طريق الآخرة) ٨٤
- (المسلمون عند شروطهم . . . » الحديث) ٢٦٢
- (المسلمون تنكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم) ١٨٧
- (لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله) ٣٢٤
- (إن الرقى والتأثم والتولة شرك) ٣٢٤
- (من اشترط شرطاً ليس فى كتاب الله فليس له . وإن اشترط فائة شرط شرط الله أحق أن يتبع) ٢١٣
- (إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر) ٢١٣
- (ألا إن الغضب جمرة) ٢٧٤
- (طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع) ١٣١ - ١٣٧
- (لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس) ١١٩

- (أملك . . . ثم أملك . ثم أبوك) ٣٨
 (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين بعدى) ٢٣٠
 (من رغب عن سنتي فليس مني) ١٥٧
 (إن مثل أصحابي في أمتي كالملح . « الحديث ») ٢٣٣
 (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص . . « الحديث ») ٢٦٩
 (اللهم أسألك الرضا بعد القضاء) ١٥٣
 (لفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب) ١٢٩
 (رباط يوم خير من صيام شهر وقيامه) ١٣٠
 (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ١٥٦
 (قدتم من الجهاد الأكبر إلى الجهاد الأصغر) ١٢٠
 (إن أطيب الكسب كسب يد التجار . . « الحديث ») ١٤٧
 (خير الكسب كسب العامل بيده إذا نصح) ١٤٧
 (أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت . . « الحديث ») ١٣٠
 (مثل أمي كالطير لا يدرى أوله خير أم بآخره) تقديم - ٢٥٣
 (إن العلماء ورثة الأنبياء . . « الحديث ») ١٢٩
 (نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن بيع وشرط وعن بيع وسلف وعن شرط) في شرط ٢١٣
 (من أصبح منكم معافى في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما خيرت له الدنيا بما فيها)
 (سئل عن الأمر ليس فيه قرآن وسنة فقال : أجمعوا له العالمين) ٢٣٦
 (من أحب أن يتمثل له الناس قياماً . . « الحديث ») ١١٤
 (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر . . .) ٩٧
 (أما أبو جهم فضراب للنساء . . « الحديث ») ٢٢٦
 (مالي ولدينا . . « الحديث ») ١٣١
 (هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك . . « الحديث ») ١٤٧
 (لا تطروني كما أطرى النصارى ابن مريم) ٣٢٥
 (إن من شرار الناس من تدرکہم الساعة وهم أحياء . . « الحديث ») ٣٢٥
 (كل معروف صدقة . . ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق) ١٠٤
 (إن الله يحب السهل الطلق الوجه) ١٢٧
 (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي . ولعل بعضكم أن يكون ألحن من بعض . . « الحديث ») ٢٧٠
 (إن الله يحب أن تؤق رخصه كما يحب أن تؤق عزائمهم) ٢٦٢

أحمد بن حنبل

- (من لم يقبل رخص الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة) ٢٦٢
(لا يقتطع عبد أو رجل يمينه مالا . . . الحديث » ٢٦٢
نحن من ماء) ٣١١
(إن بالمدينة رجالا ما سرتهم سيرا - ولا قطعهم واديا إلا كانوا معكم) ٢٧١
(لا تقطع اليد في عذق ولا عام سنة) ١٥٨
(الت الله فقيرا ولا تلقه غنيا) ١٥٠
(أسعد الله جدك) ٤٨
(من اطلع في كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع في النار) ١٠٢
(إذا ما بعث قتل لا خلافة ولي الخیار ثلاثة أيام) ٢٧٦
(أنتم الطلقاء) ٤١٢
(إياكم والغلو فقد هلك من قبلكم بالغلو) ٢٦٢
(الحلال ما أحله الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سكنت عنه فهو مما عفا عنه) ٢٦٢
(يا أيها الناس من قبل الرخصة فإن رسول الله قد قبلها . . . الحديث » ٢٦٢
(انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما) ٢٨٦
(نعمتان مغبون فيهما أكثر الناس الصحة والفراغ) ١٥٠
(دخلت النار امرأة في هرة . لم تطعمها ولم تدعها تأكل من جشائن الأرض) ١٦٢
(تفكر ساعة خير من قيام ليلة) ١٦٩
(إن الله غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركني يلهث . . . الحديث » ٦٢
(لا تتخذوا قبرى عبدا . وصلوا حيثما كنتم) ٣١٨
(اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد) ٣١٩
(لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ٣١٨
(لا تتخذوا قبرى عبدا) ٣٢٥
(زوروا القبور) ٣١٨
(خذوا من الأعمال ما تطيقون) ١٢٠
(لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا عليها أو إليها) ٣١٨
(إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق) ١٢٠
(لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه) ١٢٠
(الجهاد الأكبر مجاهدة هواه العبد) ١٢٠
(شعار المسلم على الصراط . رب سلم . سلم) ١٤٧

- (إذا أدرك الرجل ماله بعينه . . . « الحديث » ٢٢٩)
- (نحن من ماء) ٣١٢
- (من أعمر رجلاً عمرى « الحديث » ٢٢٩)
- (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) ١٨٦
- (لا إسراف في الخير) ١١٩
- (لعن الله المحلل والمحلل له) ٢٧٨
- (لو بعث من أخيك تمراً فأصابته جائحة)
- (مر عليه الصلاة والسلام بسعد وهو يتوضأ فقال لا تسرف في الماء . . « الحديث » ١١٩)
- (كان عليه الصلاة والسلام يكره الأتني في المرض) ٤٦٩
- (لاتناجشوا) ٢٦٣
- (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ٢٢٩
- (إن الله اختار أصحاباً على جميع العالمين . . .) ٢٣٠
- (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) ٢٣٠
- (من ستر مؤمناً في الدنيا على قربه ستره الله يوم القيامة) ٦١
- (اجتنبوا السبع الموبقات . . « الحديث » ٣٢٥)
- (قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه) ١٥٠
- (لق الله فقيراً ولا تلقه غنياً) ٥٠
- (أفبهذا أمرتم . أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض) ٣٦٢
- (لا تماروا في القرآن فإن مرأه فيه كفر) ٣٦٢
- (المكثرون هم المقلون يوم القيامة) ١٥٠
- (لا يكن أحدكم إمعة . . « الحديث » ٣٢٧)
- (لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً لما به البأس) ١١٩ - ١٦٠
- (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) ٢٦٩
- (يا زبير إن باب الرزق مفتوح بباب العرش) ٣٣٤
- (لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج . . .) ٣٢٥
- (من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر . . .) ٤٠١
- (سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر . . .) ٤٠١
- (من لم يدع قول الزور فليس لله حاجة في طعامه أو شرابه) ١٥
- (من أحق الناس بحسن صحابتي . . « الحديث » ٣٨)

- (من رأى منكم منكراً فليغيره . . . الحديث) ٤٥٢
- (من قتل عصفوراً عبثاً . . . الحديث) ١٦١
- (لا يحل للثلاثة يكونون بفلاة . . . الحديث) ٤٥٢
- (شربتان في شربة وإدمان في قدح . . . الحديث) ١٣١
- (من تطيب ولم يعرف منه طب فهو ضامن) ٢٨٥
- (اشترى مني رسول الله ناقة . . . الحديث) ٢١٣
- (أكمل المسلمين إيماناً أحسنهم خلقاً . . . الحديث) ٤٥٢
- (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل . . . الحديث) ١٤٥
- (لا تكتبوا شيئاً عني سوى القرآن . . .) ١٨٧
- (أمروا بالمعروف ولو لم تعملوا به كله . . . الحديث) ٤٥٢
- (اشترى بريرة واشترطى الولاء . . .) ٢١٣
- (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة . . . الحديث) ١٤٤
- (ليس الشديد بالصرعة الحديث) ٤٣٤
- (صاحب الشيء أولى بحمله) ١٤٥
- (لا تأكل حتى تعلم أن كلبك قتله) ١٦٠
- (كنا نفاضل بين أصحاب الرسول . . . الحديث) ١٦٥
- (لأن يخطئ الإمام في العفو أحب إلى من أن يخطئ في العقوبة) ٣٦٨
- (الإمام الجائر خير من الفتنه . . . الحديث) ٤٠١
- (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم فاقتلوه)
- (إن من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت) ١١٦
- (صاحب الشيء أولى بحمله) ١٤٥
- (ما أنتم بأقوى على المشي مني . . .) ١٤٥
- (الإيمان الصبر والسياسة) ١٥٢
- (خير الناس مؤمن فقير يعطي جهده) ١٥٦
- (إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم) ٢٧٤
- (لا طلاق ولا عتاق في إغلاق) ٢٧٤
- (فضل العالم على العابد كفضل القمر في ليلة الكواكب) ٣٢٠
- (يا معشر قريش اشترُوا أنفسكم من الله . . .) ٣٢٥

فهرست الأعلام

- (١)
- الأشرف العادل ٣١٩
إبان بن عبد الحميد ٨٢
إبراهيم النخعي ٢٦٠
إبراهيم الموصلی ٧٨
إبراهيم التیمی ١٤٠
إبراهيم بن إسحق الحربي ١٩٩-٢٠٩-٣٠٦
إبراهيم بن أدهم ٨٥-١٣٣
إبراهيم بن المهدي ٧٨-٢٨٢
إبراهيم بن أبي الليث ٤٠٥
إبراهيم بن سعد ٦٤
إبراهيم بن شماس ١٥-٤٠
إبراهيم بن طهمان ١٦٣
إبراهيم بن عبد الله ١٧
إبراهيم بن هشام ٤٢٩
إبراهيم بن هاني النيسابوري ٩٨-٣٠٥
إدريس بن جعفر العطار ٢٨٨
ابن أبي الحديد ٣٦١
ابن أبي ذئب ٧٠
ابن أبي ليلى (محمد) ٢١٣
ابن الأثير ٢٨-٤٥٥
ابن نظير ٣٤٨
ابن سنان ٣٤٨
ابن أبي الدنيا ٣٧٥
ابن الذیال ٣٧٥
- ابن البكاء ٣٨٣
ابن أبي حاتم ٧٠
ابن إدريس ٤٦٩
ابن جريح ١٨٨
ابن حزم ٢١٦
ابن حبان ٢٠١
ابن خزيمة ٢٠١
ابن الروی ٢٥
ابن أبي الليث ٤٢٤
ابن العربي ٢٢٠ ط ٢٢١
ابن العميد ١٦٤
ابن أبي الورد ١٥٣
ابن الفرخان ٣٨١
ابن الفارض ٣٢٢
ابن دقيق العيد ٢٨٨
ابن حبان البستي ٢٠١
ابن الجزري ١٩٢
ابن الجوزي ١٥٣-٢٤٤
ابن رأس الجالوت ٣٤٨
ابن رشد ٣٤٣
ابن الروی ٢٩
ابن سيرين ٦٤-١١٢-٢١٤
ابن حجر ١٩٣
ابن سيد الناس ٣٦٠
ابن سينا ٣٤٣

ابن سريج ١٢١	ابن وهب ١٨٨
ابن شعرة ٢١٣	ابن هرمز ٢٤٤
ابن عائشة ٣٨٨	ابن يونس الصفدي ٢٠٦
ابن عقيل ٢٥٣ - ٤٢٢	أبو أيوب ٦١ - ٢٢٦
ابن الطقطقي ٤٣٧	أبو بكر الخلال ٢٠٩
ابن عباس ٢١٤ - ٢١٦ - ٢٢٦ - ٢٣١ - ٣٣١	أبو بكرة ٢٣١
ابن عمر ٢١٢ - ٢٣١ - ٢٤١	أبو بكر الأشرم ٢٤٠
ابن الزبير ٢٢٦	أبو بكر القطيعي ١٩٣
ابن زكنون ١٩٨	أبو بكر المروزي ٩٧ - ١٦١ - ٢٣١ - ٣٠٤
ابن سماعه ٤٠٤	أبو جعفر الانباري
ابن طولون ٤٣٢	أبو بكر البطائحي ١٢١
ابن حبان ٢٠٣	أبو بكر بن جحدر ١١٩
ابن حزم ٢٢٠ - ٢٣٧ - ٣٠٧	أبو العوام البراز ٣٨١
ابن عبد ربه ١٥٠	أبو بكر بن أبي شيبة ٢٠٤
ابن شاهين ١٩٣	أبو دلف ٣٩٣
ابن تيمية ١٩٣ - ١٩٦ - ٢٢٠ - ٣١٨	أبو بكر الجعابي ١٦٤
ابن قتيبة ٣٧٥ وما بعدها	أبو الفتح الهروي ٣١٥
ابن قيم الجوزية ٢٣٤	أبو بكر بن عياش ١٢٤
ابن فدامة ٣٠٩	أبو تراب النخشي ٥٧ - ٢٠٢
ابن كلاب ٣٧٠	أبو تمام ٢٥ - ٢٨
ابن عقيل ٣٠٩	أبو نور ٦٨ - ١٧٢
ابن ماجة ٢٠١	أبو جعفر المنصور ١٨ - ٤٣٠
ابن مقلة ٤٣٧	أبو الحسن الكرخي ٢٥٠
ابن رجب ٢٨٠	أبو سعيد الخدري ٦١ - ٢٣١
ابن مخاوف (زين الدين) ٣١٩ - ٤٢٤	أبو موسى الأشعري ٢٣١
ابن المقفع ٣٤٧	أبو الحسن بن أبي اللورد ١٤١
ابن الهيثم ٣٤٤	أبو حامد الإسفرايني ٢١٩
ابن الهيثم ١٨٨	أبو حيان التوحيد ٢١٩
ابن ماسويه ٤٤٢	أبو حسان الزياتي ٣٨١
ابن المعتز ٤٣٦	أبو الحسن الأشعري ٣٧١

- أبو حمزة ١٢١
أبو حنيفة ٦٧ - ١٠٦
أبو الوفا بن عقيل ٢٧٧ - ٣٠٩ - ٣١٢
أبو خيثمة ٥٦ - ١٠٦
أبو داود (سليمان بن الأشعث) ٢٩١ - ٢٢٥
أبو داود الطيالسي ١١٩ - ١٥١
أبو زرعة الدمشقي ٣٠٦
أبو زرعة الرازي ٩٩ - ١٩٦ - ٣٠٦
٢٥١ - ٣٤٧
أبو زيد الانصاري ٦٢
أبو داود الطيالسي ٥٥
أبو سعيد البرادعي ٢١٩
أبو أحمد ابن خالة أحمد بن حنبل ٤٦١
أبو سليمان الجوحاني ١٦٤
أبو الأسود الدؤلي ٦٢
أبو حاتم الرازي ٦٠
أبو الدرداء ٦١ - ٩١ - ٢٣١
أبو زيد الأنصاري ٦٢
أبو طالب المكي ١٩٧
أبو القاسم القشيري ٢١٥
أبو القاسم إبراهيم بن محمد ١١٩
أبو طالب المكي ١٢١
أبو العروق ٤٣٧
أبو الهذيل العلاف ٣٥٥
أبو نصر التمار ٣٨١
أبو عاصم النبيل ٥٥
أبو عبد الرحمن الشافعي ٤٥٤
أبو الوليد البخاري ٢٢٠
أبو عبيد القاسم بن سلام ١٨٩ - ٢٩٩
أبو هريرة ١٨٧
أبو عبيد عمرو بن مسعود ٢٢
أبو عبيدة بن الجراح ١٣٣ - ٢٣١
أبو الحسن بن رزقويه ١٩٣
أبو الفتح شخرف ١٢٢
ابن قتيبة الدينوري ١٨٩
أبو علي الدقاق ٢١٥
أبو القاسم النصر ابادي ٢١٥
أبو عبيدة معمر بن المثنى ٦٢
أبو العتاهية ١٤٩
أبو عثمان النهدي ٢٣٥
أبو عثمان المازي ٣١ - ٦٣
أبو عثمان محمد بن الشافعي ٦٩ - ١١٤ - ٣٠٦
أبو عمرو بن العلاء ٦٢
أبو عمرو الشيباني ٦٣
أبو هاشم ٣٥٤
أبو الفرج الأصفهاني ٣٧٥
أبو محجن الثقفي ٢٣
أبو موسى الأشعري ٣٢٢
أبو مسلم الخراساني ١٨ - ٣٤٧
أبو مسلم الفراهيدي ٣١١
أبو معاوية الضرير (محمد بن حازم) ٥٤
أبو موسى المردار ٣٥٥
أبو معمر القطيعي ٢٢٢ - ٣٨١ - ٣٨٨
أبو نواس ٣٤٨
أبو هريرة ٥٩ - ٢٣١ - ٢٣٣
أبو يعقوب الشريطي ٥٧
أبو يعلى ١٢١
أبو يوسف ١٣ - ٤٧
أبو البسطامي ٢٥١

إسحق بن راهوية ١٤١ - ١٩٧ - ٢٤٣
 إسحق بن بهلول ١٠١
 إسحق بن منصور ٢٤٧ - ٣٠٥ - ٣٤٤
 إسحق بن إبراهيم ٣٧٩
 إسحق بن موسى الأنصاري ١٣٩
 أسد بن القرات ١٣٩
 أسد بن يزيد ٢٧
 إسماعيل بن أبي مسعود ٣٨١
 أسماء بنت أبي بكر ٢٣١
 أسماء بنت عيسى ٣٥٢
 إسماعيل بن بلبل ٢٩
 إسماعيل بن إسحق ١٤٠
 إسماعيل بن علي ١٠٥ - ٣٨٣
 إسماعيل بن جعفر ٣٥ ٣٥
 الأشعث بن قيس ٤٧٠
 إيتاخ ٣٩٥ - ٤٤٠
 الأسود بن يزيد النخعي ٢١١
 الأعمش ٢١١
 الأشعث بن قيس
 إشناس ٣٩٥
 الأصمعي ٦٢ - ٦٤
 أمنة الرملية ١٧٢
 الأصفهاني ٢٠٣
 أم شريك ٢٣١
 الأصفهاني ٢٠٣
 أم أيمن ٢٣١
 أم يوسف ٢٣١
 أم الدرداء ٢٣١
 أفتيخوس ٤٢٤
 الأمين ٧٨ - ٣٣٩

أبي بن كعب ٢٢٦
 أحمد بن أبي دؤاد ٣٥٦ - ٣٧٤ وما بعدها
 أحمد بن أبي الحوراي ٣٠٦
 أحمد بن النورق ١٣٩
 أحمد بن صالح ٣٠٠
 أحمد بن سعد ٢٢٩
 أحمد بن خالد ٣٧٤
 أحمد بن سعيد الرباطي ١٤١ - ٤٥٠
 أحمد بن نصر ٣٧٢ - ٣٠٥
 أحمد بن الفرج ٣٠٣
 أحمد بن سعيد الداري ١٠٢
 أحمد بن هرون الشيباني ٢٧
 أحمد بن منيع ٦٠
 أحمد بن المنذر ١٤٠
 أحمد بن الحسن الترمذي ١٦٦
 أحمد بن شجاع ٣٨١
 أحمد بن يزيد ٢٧ - ٢٨
 الأحنف ٩٧
 الأخطل ٢٥ - ٣٣
 الأنخس ٦٢
 إدريس البهوتي المصري ٣٥٣
 آدم العسقلاني ٤٥٢
 آدم متر ٣٥٥
 أدريس بن جعفر ٣٢٧
 أرسطو ٣٤٣
 أريوس ٤٢٤
 أسامة بن زيد ٢٢٦
 أسبق ٤٣٣
 استاذيس ١٨ - ٣٤٦
 إسحق بن حنبل ١٤٢

الاوزاعي ٢٤٣

الافشين ٣٣٩

أم حبيبة (أم المؤمنين) ٢٣١

أم سلمة أم المؤمنين ٢٣١

أم سلمة بنت محمد بن طلحة ٢٨

أم عمر بنت حسان ٣١١

أم العاصي بنت محمد ٣١١

أم عيسى بنت ابراهيم الحربى ٣١١

أم هانئ (بنت الحسين المورينى) ٣١١

أمة الخالق بنت عبد اللطيف ٣١١

أمة العزيز بنت محمد الامباسى ٣١١

أمة الواحد (بنت القاضى الحاملى) ٣١١

أنس بن مالك ١٩٣

أيوب السخيتانى ١٦٨

انكزاجوراس ٣٦٥ - ٤٠٨

بشر الحافى ٨٥ - ١٥٦

بشر بن الوليد ٢١٥ - ٣٣٨ - ٣٨١

بشر المريسى ٣٣٦ - ٣٤٠

بطليموس ٣٤٣

بغا ٣٩٥

بقى بن مخلد ١٩٩ - ٣٠٦

بقية بن الوليد ٤١٧

البريهائى (محمد بن الحسن بن على) ٣٦١

البريهائى (على بن خلف) ٤٥٦

بنى شاكر المنجم ٥١٥

البسوس ٣٠

بلال بن رباح ٤٠٧

البهوقى ٣١٢

بوران بنت الحسن ٨٢

بيرونى ٣٤٤ - ٣٤٧

(ت)

تاج الدين السبكى ٣١٩

نيودورا ٤٨٨

الترمذى ٢٠١

تميم الدارى ١٦٨

تقى الدين السبكى ٣٦٨

(ث)

ثمارة بن أشرس ٣٤٠ - ٣٧٤ - ٤٢٥

ثعلب (أحمد بن يحيى) ٤٠ - ٣٠٦

ثعل ٥٠٠

(ج)

جابر الجعفى ١٩٧

الجاحظ ٥١ - ٣٥٩ - ٣٧٥ وما بعدها

(ب)

الباقر ٢٠٢ - ٢٤١

باغر ٣٩٥

بابك - ١٩ - ٣٤٩

بابيان ٤٥١

البخارى ٢٢٢ وما بعدها

بدر بن أبى بدر ١٢٢ - ٣٠٦

بترارك ٣٤٤

البخارى ١٩٣ - ١٩٩

البيهقى ٢٠٣ - ٣٩٢

بشر بن المعتمد ٣٥٦

البغوى ٣٧٠

بدر الدين لؤلؤ ٤٣٧

بشار بن برد ٤١ - ٣٤٦

جرير بن عبد الحميد ٣٧ - ٥٤

جرير ٣٣

الجعد بن أبو درهم ٤٠٣

جابر بن عبد الله ٢٣١

جابر بن حيان تقديم ٧٣ - ٣٤٣

جبر ٤٢٧

جابر بن عبد الله ٥٨ - ٢٤٠

جاليليو ٤٠٨

جب ٣٤٤

جبانى ٣٧١

جساس بن مرة ٣٠

الجرجاني ٤٤٩

الجزري ١٩٨

جهنم ٤٠٠

جعفر الصادق ٢١٢ - ٢١٣

جعفر بن مبشر ٣٥٥

جعفر بن حرب ٣٥٥

جعفر بن يحيى ٨١ - ٨٣

جعفر بن سليمان ٤٧٠

الخنيد بن محمد ١٢١ - ١٢٤

جويرية - أم المؤمنين ٢٣١

جوستيان - تقديم

جوين ١٥٤

جوليان ٤٨٦

الجيلاني ٣١٢ وما بعدها

الجويني (امام الحرمين) ٤٢١

جيزو ٣١٣

الحارث بن عجم ١٣٩

(ح)

الحارث بن خالد بن العاص ٦٣

الحارث بن قيس ٢١٠

الحارث بن ولة ٣٠

الحارث الحاسبي ١٧٠

الحارث بن عبد الله الاعور ٢١ - ٢١٠ - ١٦

حاتم الأصم ٩٩ - ٢١٥

الحاكم النيسابوري ١٩٨ - ٢٠٣

حامد بن الدورقي ٣٨١

الحجاج بن يوسف الثقفي ٣٢ - ٣٣

حبش بن مبشر ٢٢٢

حذيفة بن اليمان ١٤٤

حسن البراز ١٢٤

الحسن البصري ٩٧ - ١٣٥

الحسن بن عبد العزيز الجروي ١٦٢

الحسن بن زيادة اللؤلؤي ٣٣٧

الحسن بن علي ١٥٠ - ١٥٤

الحسن العسكري ٣٩٥

الحارث بن مسكين ٤٢٤

الحسين بن علي ١٥١

حرب الكرماني ٣٠٥

حسن - زوجة الامام ٥٢٩

الحسن بن سهل ٨٢

الحكم بن عينية ٣٦٢

الحلاج ٣٢١

حسين النجار ٣٧٥

حفص بن المغيرة ٢٢٦

حفص الفرد ٢٢٣

حفص بن غيلان ١٠٥

حفص بن غياث ١٤٠

(د)

داود الطائي ١٥١ - ٢١٥

الدارقطني ١٩٢

دانت ٣٤٤

دغفل بن حنظلة ٣١ - ٦٤

دفلديانوس ٤١٩

ديماس (أسكندر) ١٦٩

ديجول ٤٣٣

دسقورس ٤٢٥

(ذ)

ذهل بن ثعلبة ٢٩

الذهبي ٣٦٨ - ٣٦٩

ذو النون المصري ٨٨ - ٣٥١

الذيال بن الهيثم ٣٨١

(ر)

رابعة العدوية ١٢٧

الراضي ٤٣٧

الربيع ٢٤

ربيع بن عبد الرحمن ١٨٢ - ٣٥٠

الربيع ٣٩٢

روجير بيكون - تقديم

الرخجي ٤٤٩

روح بن زنباع ٣٢

الرشيد ٢٥ - ٢٦ - ٢٧

ريحانة ٣٠٩ - ٧٣ ٤٦٠ وما بعدها

رامهرمزي ٢٠٣

(ز)

الزبيدي ٣٦٧

الزبير بن العوام ٣٢ - ١٦٦

فصة أم المؤمنين ١٢٦

فصة بنت سيرين ٢٣٥

حماد الدباس ٣١٥

حماد بن المزبرقان ٣٤٧

حماد بن دليل (أبو زيد) ٢١٤٠

حماد بن يونس ٣٤٧

حماد بن أبي سليمان ٢١١

حماد عجرد ٣٤٧

حمدان ٣٠٦

حنبل بن هلال ٢٠

حنبل بن اسحق ٣٠٣ - ٣٦٤

الحولاء بنت تويث ٢٣١

هوفزان ٣٠

(خ)

خالد بن أمية ١٤٠

خالد بن أبو اليد ٢١ - ٨٥

خباب ٣٩٦ - ٤٠٠

خبيب بن عدى ٤٠٧

الخطيب البغدادي ٢٠٣

الخليل بن أحمد ٦٢ - ٣٤٧

خالد بن يزيد بن مزيد ٢٨ - ٣٩٣

خمارويه ٤٤٢

خديجة أم محمد ٣١٠

خديجة بنت أبي الحسن الملقن ٣١١

الخرقى = (الحسين) ٣٠٨

= عمر بن الحسين ٣٠٨

الخلدية بنت جعفر ٣١١

خشيش بن أصرم ٣٦١

خلف بن هشام ٥٦ - ١٠٦

خوارزمي ٧٣ - ٣٤٣

- الزعفراني ٦٨ - ١٥٦
 الزمخشري ٤٠٠
 الزهري ١٨٢ - ١٨٣
 زيد بن علي ١٦٦
 زينب (أم علي بنت أحمد بن حنبل) ١٤٢
 زفر ٢٤٣
 زرادشت ٣٤٧
 الزهري ٥٩
 زونجلي ٤٢٦
 ززل ٧٥
 زهير بن صالح ٩٩ - ٣٠٦ - ٤٦٤
 زينب (أم علي) ٤٦٤
 زينب بنت أم سلمة ٢٣١
 زينب بنت جحش أم المؤمنين ١٣٤
 زيد بن ثابت ٢٣١
 زيد بن أرقم ١٨٦
 زيد بن علاقة ٦٧
 (س)
 سان بيف ٤٣١
 سالم بن عبد الله ٥٩ - ٩٤ - ٤٠٧
 سحيم بن حفص ٦٤
 السري بن منصور السقطي ١٢١ - ١٢٤ -
 ١٤٧ - ٢١٥
 سلمة بن دينار (أبو حازم) ١٣٥
 سجادة ٣٨٦
 السيد الحميري ٣٤٧
 سرفانتس ٣٤٤
 السرخسي ٤٠٧
 سعد بن أبي وقاص ٢٢ - ٩٧
 سليمان بن يسار ٤٠٧
 سعد بن عامر ١٤٤
 سعدوية ٣٨١
 سعيد بن زيد ٢٣١
 سعيد بن الصباح ٣٥
 سعيد بن المسيب ٥٩ - ١٨٢ - ٤٠٧
 سعيد بن جبير ٢١٠ - ٢١٤
 سعيد بن أبي عروبة ١٢٦
 سعيد بن بشر ١٥٠
 السفاح ٢٤
 سفيان الثوري ٨٤ - ٩٣ - ١١٥
 سفيان بن عيينة ٦٧ - ١١٦
 سفيان بن مجاشع ٣٤٧
 سقراط ٣٩٨
 سلمى بنت أبي حفصة ٢٣
 سلام الأبرش ٤٤١
 سلمان الفارسي ١٤٤ - ٢٣١
 سلم الخامس ٣٤٧
 سلمان بن داود الهاشمي ٦٨ - ٧٢
 سليمان بن عبد الملك ٤٥٢
 سليمان بن عمار التجيبي ١٦٨
 سليمان السجستاني بن الأشعث (أبو داود)
 سليمان بن هشام بن عبد الملك ٣٤ - ٤٢٣
 سليمان بن حرب ٥٥ - ٥٦
 سيويه ٦٢
 السيوطي ١٩٨ - ٢٤٣ - ٣١٢
 سينيكا ٤٥١
 (ش)
 شارل الخامس ٤٢٧
 الشبلي ٢١٥
 الشاطبي ٣٠٧ - ٣١٧

الشافعي ٤٣ - ٤٦ - ٦٥ وما بعدها

الشعبي ٢١٠ - ٢١١

شجاع ٤٣٠

شعيب بن شيبه ٤٣١

شقيق البلخي ٨٥

شبيب الخارجي ٣٣

شخرف ١٢٢

شراحيل بن معن ٢٧

شريح ١٨٢ - ٢١٠

شعبة بن الحجاج ٢٠٣ - ٢٤١

شقيق البلخي ٢١٥

شعويه ٤٥٤

الشعبي ١٩٤

شهدة الكاتبة ٣١١

شكشير ٤٧١

شيبان

شيبان بن ثعلبة ٢٩

شيبان بن ذهل ٢٢

شنياد ١٨ - ٣٤٦

(ص)

الصاحب بن عباد ٣٥٩

صالح بن أحمد بن حنبل ١٤٢ - ٣٠٦

صالح بن عبد القدوس ٣٤٧

الصدوق ٣١٠

صفوان بن اميه ٥٢

صفية أم المؤمنين ٢٣١

صفية بنت ميمونة ٢٩ - ٣٥

صفية بنت ثعلبة ٣٠

صلاح الدين ٣١٣

(ض)

الضحالك بن قيس ٢٨ - ٢٢٦

(ط)

طاهر بن الحسين ٨٠ - ٣٤٩

الطبري ٤٧ - ٢٣٧ - ٤٥٤

طارق بن زياد ٣٤١

طلحة ٣٢ - ٣٣٥

الطحاوي ١٠٢ - ٤٥٥

الطوفي الحنبلي ٢٨٩

الظاهر ببيرس ٤٣٣

(ع)

عائشة أم المؤمنين ١٠١ - ٢٣١

العرباض بن سارية ٣٥٠

العباسة بن المهدي ٨١

العباسة بنت الفضل ٣٠٩ - ٤٦٠

العباس بن المأمون ٣٩٦

عبد الأعلى بن مسهر ٣٨٧

عبد الحليم بن تيمية ٣١٨

عبد السلام بن تيمية ٣١٨

العرفي ١٤٤

العلاء الحضرمي ١٢ - ٤٣

عاصم بن علي بن عاصم ٣٨١

عبادة بن الصامت ١٣٤ - ٢٣١

عبادة المخنث ٣٧٢

عبدة السلماني ٢١٠

عبد الرحمن بن اسحق ٣٠١

عبد الرحمن بن أبي ليلى ٢٤١

عز الدين بن عبد السلام ٣١٦ - ٣١٩

عبد الرحمن بن مهدي ٥٥ - ١٩٦

- عبد الرحمن بن يزيد النخعي ٢١١
عبد الرحمن بن عوف ٦٤ - ١٣٣
عبد الرحمن بن اسحق ٣٨١ - ٤٠١
عبد الرزاق بن همام ٥٩
عبد العزيز آل سعود ٣٢٦
عبد العزيز بن أبي سلمه ٢٤٤
عبد العزيز الجروى ١٦٢
عبد الغنى بن سعيد ٢٠٣
عبد الكريم بن أبي العوجاء ١٨٤
عبد العزيز بن برقوق ٤٣٣
عبد الله بن أحمد بن حنبل ١٤٢
عبد الله بن جعفر ٢٧٣
عبد الله بن المبارك ٩٣ - ١٥٣ - ١٨٨ - ٢١٨
عبد الله بن ذكوان (أبو الزناد) ١٨٣
عبد الله بن طاهر ١٤١
عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ٣٤
عبد الله بن حنبل ٣٥
عبد الله بن ادريس ١٤٠ - ٣٣٤
عبد الله بن مسعود ٢١٠
عبد الله بن الفتح بن خاقان ٣٠٦
عبد الرحمن بن الفتح بن خاقان ٣٠٦
عبد الله بن أحمد بن حنبل ٣٠٧
عبد الله بن عبد الحميد الميموني ٣٠٣
عبد الله بن موسى العيسى ١٦٥
عبد الله بن محمد بن اسحق الأزدي ٤١٠
عبد الله بن مسعود ١٨٢
عبد الله بن وهب ٣٠١
عبد الله بن المهدي ٢٧
عبد الملك بن عمير الليثي ٤٢٣
عبيد الله بن زناد ٤٢٣
عبد الملك بن سودة الشيباني ٢٩
عبد الملك بن عبد الحميد ٦٨ - ٣٠٥
عبد الملك بن مررطن ٤٢٣
عبد الملك بن عمير الليثي ٤٨٤
عبد الملك بن مروان ٣٠٢
عبد الوهاب الوراق ١٤٨ - ٢٢٤ - ٣٠٤
عبد الواحد بن محمد ٣١١
عبد المنعم بن ادريس ٣٨٣
عبيد الله بن محمد بن الحسن ٣٨٣
عتاب بن أسيد ١٤٠
عثبان بن وصيلة ٣٤
عجيف ٤٤٠
عدين بن حاتم ٢١
عروة بن الزبير ٢١٣ - ٤٠٧
عفان بن مسلم الصنفار ٥٤
عكرمة بن أبي جهل ٢٠٣
علقمة بن قيس النخعي ٢١٠
على بن محمد البونيني ١٩٣
على بن المديني ٦٠ - ٤٠٣ - ٤١٣
على بن أبي مقاتل ٣٨١
على بن بندار ١٣١
على بن عبد الله الطيالسي ١٧١
على بن الجهم ٤٤٥
على بن موسى (الرضى) ١١٨ - ٢١٨ -
٣٣٩ - ٣٨٥
علويه ٣٣٨
عليه بنت المهدي ٧٨
عمار بن ياسر ٤٠٧
عمر بن الحسين الحرقي (أبو القاسم) ١٢٦

عمر بن أخت المؤيد ٣٤٨

عمر بن قيس الملائي ٥٣

عمر بن حبيب ٢٣٢

عمير بن سعيد ١٢٤

عمرة بنت عبد الرحمن ٢٣٥

عمرو بن معديكرب ٢٢ - ٢١٠

عمرو بن ثعلبة ٣٠

عمرو بن عبيد ١١١ - ٥٤٠

عمر بن عبد العزيز ٩٤ - ١٣٩ - ٢٣٣

عمران بن الجصاص ١٤٣

عمران بن حصين ٢٣١

عمران بن حطان ٣١ - ٣٢

عمرو بن العاص ٣٢ - ١٥٩

عمرو بن دينار ٦٧ - ١٩٤

حنان الناطقية ٨٠

عوف بن علي ٣٠

عيسى بن جعفر ٢٧٦

عياض ٣١٩

(غ)

الغزالي ١٢١ - ١٨٥ - ٢١٩ - ٣٦٥

غزالة زوج شبيب ٣٣

غلام خليل ٤٥٥

(ف)

الفارابي ٣٤٣

الفتح الموصل ١٢٣

الفتح بن أبي الفتح ٣٠٦

فثيون ٣٧٠

فردريك الثاني ٣٤٣

فرقد السنجي ١٢٤

الفرزدق ٣٣

فرنسيس بيكون - تقديم

الفضل بن الربيع ٣٣٧

الفضل بن عياض ٦٧ - ٧٣ - ٩٤

الفضل بن دكين ٥٤

الفضل بن الربيع ٣٣٧

الفضل بن سهل ٣٣٩

الفضل بن غانم ٣٨٨

فوران (عبد الله المهاجر) ٣٠٦

الفضل بن الفرخان ٣٨٦

فاطمة الزهراء ٢٣١

فاطمة بنت قيس ٢٢٦

فاطمة النيسابورية ٣١١

فاطمة بنت المنذر ٦٥

فاطمة بنت علي السير ٣١١

فاطمة بنت هلال ٣١١

فرات بن حيان ٢٢

فيليب المقدوني ٤٣٩

فيليب المقدوني ٤٣٩

فولتير ٣٩٥

فريدة ٤٣٦

(ق)

قبيحة ٤٣٠

شبيب ٢٣

قحطبة بن شبيب ٢٣

قدامة بن مظعون ٢١٥

القعقاع بن سور ٣٠

قتيبة بن سعيد ٥٦ - ٣٤١

(ل)

لافال ٤٣٥
لوثر ٤٢٦
لاوست - تقديم ٢٩٥
ليلي بنت قانتف ٢٣١
الليث بن سعد ١٦٩ - ٢٤٣
لويس بارتو ١٦٩
لويس الرابع عشر ٣٤٤
ليث بن طاوس ٤٦٩

(م)

مارك أوريل ٣٩٢
مارشيا نوس ٤٢٥
المأمون ٥٢ - ٢١٨ - ٣٣٣ وبها بعدها
مالك بن أنس ٥١ - ٦٦ - ٧١ - ١٣٩
ماردة ٧٨
المتوكل ٧٨ - ١٦٦ - ٤١٥
المبرد ٣٠٥ - ٤٢٩
مالك بن دينار ١٤٨ - ١٦٨
المنى بن حارثة ٢١ - ٢٢ - ٢٩
مجاهد بن جبر ١٩٤
محارب بن دثار ٣١
محمد بن عثمان بن أبي شيبة ٢٢٧
محمد بن إبراهيم بن معصع ٤٠٤
محمد بن إبراهيم بن دينار ٢٤٤
محمد بن اسحق ٦٤ - ٦٥
محمد بن حبيب ٣١
محمد بن الحسن ٤٩
محمد بن حنبل ١٧ - ١٩ - ٢٩
محمد بن حاتم ٣٨١

قطر الندى ٢١٩

القدوري ٢١٩

قيسي بن أبي حازم ٢٣٥ - ٤٠٣

قيس بن مسعود ٢٣

قيس بن عاصم المتقري ٢١

القنذي ٢٤٣

قتادة ١٨٥

قطرب ١٨٩

القواريري ٣٨١

قسطنطين ٤٢٥

القرافي ٢٨٩

قراطيس ٤٣٠

قيصر - تقديم

(ك)

كالا ٣٩٥

كثير ٩٥

كراكلا ٤٥١

كارليل ٤٧١

كريتون ٤٥٤

كريمة بنت أحمد المروزي ٣١١

الكلواذي ١٠٣

كمالية - ٣١١

كسري يزدجرد ٢٣

كسري ابرويز ٣٠

كرايسى ٦٨ - ٢٢٣

كليب بن ربيعة ٢٢

الكندي ٧٣

كوبرنكس ٣٤٤

محمد بن سعد كاتب الواقدي ٦٥	مزدك ٣٤٧
محمد بن سماعة ٢١٤	مزدلف ٣٠
محمد بن شجاع الثلجي ١٤١	المزني ٢٤٤ - ٤١٤
محمد بن عبد الوهاب ٣٢٣	مسروق ٢١٠ - ٢٣١
محمد بن عبد الملك الزيات ٣٥٩ - ٣٧٦	المستعين ٤٣٦
محمد بن كرام ٣٢٢	المستعصم ٤٣٧
محمد بن سالم ٣٢٢	مسرور ٨٣
محمد بن عمر الرخجي ٥١٥	مسلمة بن مخلد ٦١
محمد بن عجلان ٧١	مسعود بن حارثة الشيباني ٢٢
محمد بن نوح ٣٨١	مسلم بن الحجاج ١٩٣ - ٢٠٠
محمد بن عمر الواقدي ٦٥	مصعب بن الزبير ٤٢٣
محمد بن عبد الله بن طاهر ٤٧٠	مضفة ومجة اختا بشر الحافي ٣٥١
محمد بن مسلم بن وارة ٧٠	مطين الحضري ٢٠٣
محمد بن مسلمة ٩٧	المعنى بن حارثة الشيباني ٢٢
محمد بن معاوية ١٠٢	مطرف ٢٤٤
محمد بن منصور بن داود ٣٠٦	المظفر بن مرجي ٢٨٣
محمد بن عبد الله بن الحسن ١٦٦	معاذ بن جبل ٢٣١
محمد بن احمد بن أبي دؤاد ٤٣٨	معاذ العنبري ١٥٣
محمد بن عبد الرحمن الضيرقي ٢٣٥	معاوية بن أبي سفيان ٣٢ - ١٨٢
محمد بن الحنفية ٣٥٤	معاوية بن يسار ٣٤٦
محمد بن واسع ١٢٦ - ١٦٦	المعتضد ٣٤٦
مخارق ٤٣٠	مقاتل بن سليمان ٤٠٠
المختار بن عبيد ٤٢٣	المعتصم ٧٨ - ١٠٩ - ٣٣٣ وما بعدها
محمود بن سبكتكين ٢١٩	المعتمد ٢٩
محيي الدين بن عربي ٣٢٢	المقتدر ٤٣٦
مراجل ٨٠ - ٤٩٢	معروف الكرخي ٨٥ - ١١٨ - ٢١٥
مروان بن أبي حفصة ٢٤ - ٢٦	معن بن زائدة الشيباني ٢٤ - ٢٦
مروان بن محمد ١٨ - ٢٨	المغيرة بن شعبة ٢٢ - ١٤٧
مردان شاه ٢٢	المقدسي ٨٤
المرغناني ٣٢٥	مليد بن حرمة ٢٨

مؤرج بن عمر وأبو فید السدوسی

۳۱ - ۶۲

منصور البطائی ۱۵۰

محمد بن الحسن ۱۸۳ - ۲۰۹

محمد بن عثمان بن شیبہ ۲۰۳

محمد بن مسعود ۳۲۶

معید الجهنی ۳۵۹

المقنع الخراسانی ۱۹

منصور بن عمار ۳۵۰

مهنا بن یحیی الشای ۱۹۷ - ۳۰۵

المهدی ۱۹ - ۲۵

مهتدی بالله ۴۱۰

موسی بن حزام ۱۶۴

موسی بن نصیر ۳۴۱

موسی بن عبد الله بن الحسن ۲۸

میمون بن مهران ۱۴۸

میمونة بنت الأقرع ۳۱۱

موس الكاظم ۳۹۵

(ن)

النظام ۳۵۵ - ۳۷۴

نابلیون - تقدیم

نافع ۶۴ - ۲۴۱

نجم الدین الطوقی ۱۳۰

نجید الترمذی ۱۲۰

نزار ۲۹

نسطور ۴۲۴

النسانی ۱۹۰ - ۲۰۱

نصر بن سيار ۲۴ - ۴۲۹

نصر بن علی ۱۴۰

النضر بن شمیل ۶۲ - ۱۸۹ - ۳۸۰

النعمان بن بشیر ۳۲

نعمان بن مقرن ۲۲

نعیم بن حماد ۵۱

نشوان بنت عبد الله ۳۱۱

النعمان بن المنذر ۳۰

نعمان بن بشیر ۳۲

نوح بن مریم ۱۸۵

نیرون ۴۵۱

(ه)

هانی بن مسعود ۳۰

الهادی ۷۶

هرون الخمال ۱۰۲

هشام بن عبد الملك ۱۵۰ - ۱۸۸

هشام بن محمد الکلبی ۶۴

هشام بن عروة ۶۵ - ۲۱۳

هشام بن الحكم ۱۰۵

هشیم الواسطی ۵۱

هند بنت عتبة ۴۰۶

هولاکو ۴۴۷ - ۵۰۹

هند بنت النعمان بن بشیر ۳۲

هنری روبر ۱۶۹

الهیثم بن عدی ۱۸۴

هیجو ۳۴۴ - ۴۲۱

هیلاثة ۷۸

(و)

الواثق ۱۵۳ - ۳۷۱

واصل بن عطاء ۳۵۴

يحيى بن معين ٥٧ - ٥٨ - ٦٧ -
 ١٠٠ - ١٧٢ - ٣٨١ وما بعدها
 يزيد بن أبي مالك ١٣٩
 يزيد بن ذريع ٥٢ - ٥٣
 يزيد بن معاوية ١٦٥
 يزيد بن مزيد الشيباني ٢٦ - ٦٧
 يزيد بن هارون ٥٢ - ٢١٨ - ٣٧٣
 يحيى بن يعمر ٣٥٨
 يحيى بن عبد الرحمن العمري ٣٨١
 اليزيدي ٣٣٣
 يعقوب بن اسحق ٦٨ - ٣٠٦
 يوسف بن اسباط ١٣٠
 يوسف البرم ٢٦
 يونس بن عبيد ١٢٦
 يوسف بن عبد البر ٢٠٣
 يوسف بن يحيى البويطي ٣٩٨

وحشى ٤٠٦

وائله بن الأسقع ١٩٤

وكيع بن الجراح ٥٢ - ٥٣ - ٦٧ - ٢٤٤

الوليد بن عبد الملك ٤٠٦

الوليد بن طريف ٢٧

(ي)

يحيى بن آدم ٣٥

يحيى بن أكرم ٥٢ - ١٤١ - ٢١٨

يحيى بن أبي بكير ١١١

يحيى بن خاقان ٤٤١ - ٤٤٤

يحيى بن خالد بن برمك ٤٢ - ٨٣ - ١٠٥

يحيى بن معاذ ٥٨

يحيى بن كثير ٥٨

يحيى بن سعيد ٥٢ - ٦٧ - ٢٠٢ - ٣٠٣